الجزء الأوّل

قدرة المعرفة

obeikandl.com

«خلّفت وراءك

«قوى تعمل من أجلك : الهواء والارض والسموات،

«ولن يكون في وسع نفَسٍ من أنفاس الرياح

«أن ينساك . إنّ لك لحلفاء عظاما ـ

«وأصدقاؤك هم النشوات، والآلام،

«والحبّ، وعقل الانسان، الذي لا يُغلب»

وردزورث في قصيدته عن

«توسان لوفرتير»

obeikandl.com

الفصل الاول

ما اكثر العجائب !

في مأساة من أكرم المآسي الاغريقية ، علمت فتاة أن جثة شقيقها — المتهم بأنه ثائر وخائن — قد طرحت في بقعة صحراوية حتى يحلّ بها الفساد أو تتناهشها الذئاب والنسور ، أنذرت وأوعدت الحكومة بإعدام من يتولّى دفن الجثة . وقد أمضّ الفتاة تساؤل ملحّ : مـــاذا عساها تصنع ؟ ثم حزمت أمرها على أن الواجب يقتضيها أن تنتهك حرمة القانون ، وإنْ أفضى ذلك إلى إهدار سعادتها وحياتها . أما شقيقتها فقد أبت أن تصحبها ، وذرفت دمعاً ، وسعت جهدها لتثنيها عن عزمها ، ولكن الفتاة مضت لا تَلْوي على شيء لوَيَة نحو مصيرها الرائع الرهيب .

وبعد قليل يهْرَع حارس مبهور الأنفاس ، يبلغ رؤساءه أن أحداً من الناس قد زار مكان الجثة وأقام شعائر الدفن ، برغم الأمر الرسمي الجديد ، والحرس القوي الشاكي السلاح .

فغضب حاكم البلد المستبدّ ، أن يستهين كائن من كان بسلطانه وأمر بتفتيش المنطقة كلها ، واعتقال المجرم ومعاقبته على التوّ . وسمعت جماعة من المواطنين بما كان ، فأخذهم الذهول — والخوف ، ولكنهم ما لبثوا أن انطلقوا ينشدون نشيداً قدسيًّا صادراً من اعماق قلوبهم معرباً عن إعجابهم بما يتصف به البشر من قدرة لا تحدّ .

ما أكثر العجائب ! ولكنك لن تجد بينها

عجيبة أعجب من الإنسان . يتحرك الإنسان على البحر الأغبر ،

مستعيناً بالريح والعاصفة ، مجترئاً على الاغوار والغوارب .

حتى أقدم الأرباب ، الارض ، الارض التي لا ينضب معينها ،

يقبض الانسان على عنانها بمحاريثه ووطأة جواده الثابتة .

يشقُّ تربتها ويقلبها كل سنة ،

اللغة والفكر اللطيف السريع كالريح ، تعلمها الانسان

كما تعلم طرائق العيش في البلدة والمدينة

تؤويانه من الصقيع الكالح ، وتنجيانه من سهام المطر .

داهية داهية ، هو الانسان

***

وعلى ما في خططه من حكمة وحيلة، تجاوزان الخيال فانها تقوده الى الشر والخير معاً.

ولو شاءت الجماعة المنشدة، لرفعت نشيدها الى المصير الانساني، الى القدرة القاهرة التي يبدو كأنما هي تتخطى بعض الرجال والنساء أحياناً، على حين تراها تتخيّر غيرهم لتبلوهم بصراع مؤلم، او تستنجزهم قراراً فيه حياة او موت، او تهيب بهم الى البطولة. فروح البطولة هو الحديد الخفيّ الذي يدور مع الدم، ويمكن المعذبين من ان يتساموا به على الاشفاق، حتى يبلغوا مرتبة تنيلهم الاعجاب والشرف. بيد ان الجَوْقةَ في نشيدها، امتدحت العقلَ المفكر، المنطوي على الارادة، فيما ينطوي عليه من وجوه النشاط التي لا تحصى، العقلَ الذي يستطيع ان يحلّق فوق ما قدّر له من مصير، بأن يتحدّى مصيره، وان يفهمه ايضاً.

والنشيد المرفوع الى عقل الانسان، هو نفسه آية باهرة من آيات العقل. فقد اخذ الشاعر صفوقليس قطعة من اسطورة ترتدّ الى ما قبل التاريخ، وصلت اليه بعد ما جازت هوّات لا يحدّ الخيالُ ظلاَمها: اسطورة وفاة الاميرة انطيغونا ابنة الملك اوديبوس المعذّب، فنفذ الى فهم معناها الخالد على الدهر. وقد جمع حوادث المأساة واشخاصها ونسقها إيقاعاً شديد الاحكام في الاختراع الجديد

الرائع الدرامة التراجيدية (المأساة) . وأنطق اشخاصها بالفاظ آسرة ، بارعة ، قوية من اللغة الاغريقية التي تعدّ من ابدع وابرع ما برأ البشر أداةً للتعبير ، ولكي تحمل الالفاظ من المعاني ما هو انفذ وادقّ ، اجرى الحوار على ألسنة الاشخاص شعرا ، فعبّروا عن افكارهم (افكاره هو) في مقاطع من الشعر القويّ المرن على رصانته — الشعر « الدرامي » الذي اخترعه اليونان ، واخذته عنهم شعوب تَلتهم دون ان تفوقهم فيه . وكذلك اعرب فريق المنشدين في المأساة ، عن انفعال الشفقة والخوف والدهشة في نبرات ناطقة كانت هي والرقص سواء. وقد وضع صفوقليس ألحاناً موسيقية لروايته ، واصطنع لفئة المنشدين ألواناً من الرقص الشعائري . وليس في وسعنا اليوم ان نرى الرقص ، او ان نسمع الموسيقى ولكننا نستطيع ان نستشعرهما في نبض كلماته وايقاعها . وقد مات صفوقليس ، ومات الذين مثّلوا روايته ، وذهب جميع الذين شهدوا مأساة أنطيغونا تُمثّل في اثينا وسمعوا أنغامها ، منذ اربعة وعشرين قرناً ، واصبح المسرح كومة من خرائب ، واللغة نفسها التي عبر بها ، قد زالت عن ألسنة الناس منذ عهد بعيد .

ومع ذلك فان كلمات صفوقليس وأفكاره لن تموت . والناس يُقبلون على تعلم قراءتها غير مبالين بالمشقة ، ويعجبون بها ، انهم يتدارسون تركيب المسرحية ، ويستعينون بأذن

داخلية في نفوسهم على استيحاء ايقاع شعرها والحـــانه، ويسمعون أصوات الاشخاص الذين يمثلونها: البطلة ذات الكِبَر، والمشترع الذي لا يلين، ولا يزالون تدهشهم تلك المعجزة التي لا ينقضي سحرها — معجزة العقل البشري، الذي يستطيع ان يبتكر افكاراً كهذه الافكار، وان يفرغها في مثل هذا القالب الرائع، ثم ان ينقلها على الرغم من اختلاف اللغة والتاريخ والاعتقاد وتطوّرها، فتتلقاها اجيـــال تالية فتعيد تقليب الفكر فيها فتوحي افكاراً جديدة في عقول اناس أُخَر. واذا ما قرأها الناس استشعروا مرة أخرى معنى المأساة، أنه ينبغي للناس، رجالا ونساء ان يفكروا، وان يحسّوا انهم احرار ليفكروا، وان احط الوان الشقاء، هو استعباد العقل لا استعباد الجسد، ان في قدرتنا ان نجعل الحياة، وان قسَتْ او استغلق أمرها علينا، جديرةً بمصير رائع اذا نحن حرصنا على صيانة عصمة العقل.

الفصل الثاني

الانسان

التفكير ، التعلّم ، التذكر ، المعرفة ، التصوّر وابتكار المعاني ، حفظ المعرفة ونقلها عبر الزمـــان والمكان ، هذه الأشياء ليست عجيبة وحسب في سعة نطاقها وتنوّعها ، بل انها فذة ، فهي التي تجعلنا بشرا .

الحيوان والانسان

تبصّر في حياتنا ، فكل وجه من وجوه نشاطنا — عدا ما تقدّم — يشاركنا فيه سائر سكان الارض . ان الحيوانات بين طيور وزواحف وسمك وحشرات ، تتصارع في سبيل السلطان كما نفعل . وهي تنظم أنفسها في جماعات ، وكثير منها يبني ، وبعضها يسيطر على بيئته بمخترعات بارعة ، وبعض آخر يجمع الثروة كما نجمعها . انها تحارب ، وتتناسل ، وتلعب الألعاب ، وتستمتع فئات منها بقوى لن ننالها وقلما ندركها ،

وتتصف بالدهاء والبراعة ، ولكنها في مجموعها قلّما تتعلّم شيئاً جديداً ، ولا تكاد كأفراد ان تتعلم شيئاً جديداً على الاطلاق . براعتها متعددة الألوان ، معقدة ولكنها محدودة ، وفنّها على ما فيه من حُسْنٍ ينصرف اطلاقاً الى الزينة ، ولغاتها تتألف من بضع عشرات من الاشارات والاصوات. اما ذاكرتها فقوية وإنْ كانت مقتصرة على نطاق ضيق ، ورغبتها في الاستطلاع سطحية وعابرة ، فهي لا تكاد تكون سوى بداية ذلك العجب الذي يأسر عقل العالم البشري ، او الشاعر ، او المؤرخ ، او الفيلسوف . وهي لا تكاد تتصوّر ان التعلم والمعرفة هما نشاط لا حدّ له ، توجهه قوة الارادة . ولن تجد بين الاحياء على الارض جماعة سوى جماعة البشر ، يستطيع افرادها حقّاً ان يتعلموا ويعرفوا ويتذكروا ويفكروا تفكيراً مبدعاً ، متخطين حدود الجماعة الواحدة او متغلبين على إلحاح حاجة عابرة ما . فالمعرفة التي تُنال وتُنقل من اجل المعرفة وحدها ، هي الصفة التي تجعلنا بشراً . والجنس البشري فيه اوبار الحيوان ورئاته ، وعظم الزواحف ، ودم كدم السمك . فنحن والحيوان ذوو قربى ، وكثيراً ما نكون أشدّ قسوةً منهُ ، ولكننا في حقيقة الامر نختلف عنه في ان قدرتنا على التعلّم لا تكاد تحدّ ، واننا نعرف ونتذكر ، فنحن « الانسان المفكر » .

ان حياة كل رجل وامرأة مؤلفة من افعال وانفعالات

كثيرة، ولكن صورة الحياة تبلغ ذروة الوضوح اذا نظرنا اليها على انهـــا تعلّم. فنحن لا ننفك نفكر، وافكارنا وتجاربنا تكوّن كتلة من المعرفة، نسلم بها ونتقبلها ولا نفتأ نتعهدها بالتنظيم، ولا يختلف احدنا عن الآخر الا بمقدار عمق هذا التنظيم وكماله.

ونحن نعترف بهذا، فهو من النظرات المألوفة، ولكنّ الرأي غير المألوف هو ان تاريخ البشر كله، بأمجاده ومثالبه، وجرائمه وروائع بطولته، لن يفهم افضل فهم الّا اذا نظرنا اليه على انه تيّار تعلّم مستمرّ وهذا التيّار، قد يضطرب مدداً طويلة او يرتدّ او يقف، ولكن في الوسع ان نتبين مسيره، وكلما كان مسيره الى امام كان دائماً ادعى الى الاعجاب.

ان دراسة التاريخ على انه احاديث الصراع من اجل السلطان، تثير النفس، وتحركها ولكنها لا تجدي. فقد ظلت حيوانات الدينوسور الجبارة تتصارع عصوراً طويلة، عاش بعضها ومات بعضها، ليس في ذلك معنى يستفاد. وقبائل البشر لم تزل منذ قرون تصطاد وتغزو ويستعبد بعضها بعضاً — براثن هـذا الحيوان اطول من براثن ذاك، وعضلات هذا المحارب اقوى من عضلات خصمه، هذا نصب كمينا وذاك وقع فيه. حقائق، ولكن أهي ذات خطر؟ أفي وسعها ان تفسّر لنا انتشار البشر على سطح الارض،

ام هي نشاط لا يمتّ الى الاصل بآصرة؟ طبعاً لا ، ان تاريخنا الحقيقي الاصيل ، هو تاريخ تعلمنا وتفكيرنا .

فبالتعلم انتقلنا من مرحلة الحيوان وجعلنا انفسنا بشراً ، وكانت هذه النقلة هي المرحلة الاولى ، فهناك في الادغال الدافئة ، وبطريقة ما ، بدأ المخّ البشري العجيب ، يتكون خلية خلية ، وَرَجْعاً عصبياً بعد رَجْع ، ومعه نشأت قدرتان بشريتان — اللغة الدقيقة المعقّدة ، والايدي البارعة التي تتكيف وفقاً للحاجة . وقد يتهدم العالم من حولنا ولكن هاتين القدرتين تيسّران لنا ان نعيد سيرته الاولى .

الأدوات

كنا لا نزال في ظلمات الدغل والكهف ، يوم تعلمنا ان نستعمل ادوات ، وافضل من ذلك أننا تعلمنا كيف نصنعها . ان دراسة الآثار التي تعود الى الزمن السابق للتاريخ ، هي علم لا يزال فيه نصيب كبير للتخمين . ولكنّ شيئاً واحداً فيه لا يأتيه الشكّ وينطوي على كثير من الشفقة والفتنة ، هو التقدم البطيء الذي اصابته ذواتنا المتغلغلة في القِدَم خلال سيرها من « الحيوانية » الى « الانسانية » عن طريق عمل التعلم الذي لا يفتر ولا يقف عند حدّ . وانت ترى في كل متحف ذي شأن صندوقاً ممتلئاً بأدوات من الظرّان

ـ مطارق وفؤوس وكاشطات مرتبة وفقاً لاختراعها، فأقدمها لا يكاد يعدو ان يكون كتلا من الحجر، وقد كسرت شظايا من بعض زواياها حتى تستطيع اليد الغشيمة ان تقبض عليها بطريقة ما. ولكن لا تكاد تحدق في هذه الادوات التي صنعها الانسان الوحشي في فجر البشرية، وتفحص بقية الادوات في السلسلة المرتبة، حتى ترى كيف تعلم الانسان، رويداً رويداً، قرناً بعد قرن، ان يختار حجارة افضل لتأدية غرضه، وان يدرس وزنها وتوازُنَ كل كتلة بعد صنعها، ثم كيف تحوّل من طرق بعض زواياها هنا وهناك، الى فَلْعها وقشر رقائق منها، وكيف نَعّمها ودوّرَها وحدّد حروفها وصقلها حتى غدت ادوات نافعة، وجميلة ايضاً. ثم اذا تصوّرت هؤلاء الاسلاف القدامى يفكرون او يتعلمون ان يفكروا، ويتكلمون او يتعلمون ان يتكلموا في اثناء عملهم واذا الحاجة البسيطة الملحة الى قطعةٍ من ظرّان تصلح لقتل الذئب، تتحوّل بين ايديهم الى غبطة الحيازة على اداة صنعت لغير غرض خاص، او لانها ذات جمال. واذا تبيّنت كيف تحوّلت عادة الارتجال فأمست صناعةً وتقليداً، وكيف افضى تزايد الاتقان الى توليد قوى جديدة، وحاجات جديدة، وآمال وشعائر جديدة ـ اذا أنعمت النظر في ذلك كله وجدت أنه يستحيل عليك ان تنظر الى هذه الادوات الظرّانية وان تتصوّر صانعيها بغير ان يخالجك شعور الشفقة والاعجاب والمحبة لاسلافنا هؤلاء

الماهرين المجدّين ، ودون ان تراهم حلقة في سلسلة الصانعين والمخترعين التي ننتمي اليها ، ودون ان تجدّد إجلالك لنموّ العقل البشري .

ان تاريخ هذا النموّ هو التاريخ الحقّ . وقد جاءت مخترعات اخرى بعد الادوات الظرانية : السيطرة على النار ، والتحوّل البارع الذي يكاد ان يسحرك ، والذي احال كتل التراب خزفاً قاسياً صلباً ، او استخلص منها الفلزات التي تبقى ، واختراع العجلات التي لا تنفكّ تدرج على سطح الارض . وفي زمن ما ، متغلغل في القدم اخترع احد المهرة من الرجال الاستعانة بالحيوان – اي انهم اخذوا الحيوانات البرية الوحشية ، كالخيل والجواميس والخنازير التي كانوا يصطادونها ليأكلوا لحمها ، والذئاب التي كانوا في صراع معها ، وطيور الادغال والمستنقعات التي كانوا يصيدونها بسهام او شراك – اخذوها ودربوها ، رويداً رويداً جيلاً بعد جيل على العيش صابرةً راضيةً في صحبة الانسان وما اعجب ان ترى جرو الكلب في الزريبة يعوي ويضرب الباب ببراثينه ، لانه يريد ان يخرج لينعم بصحبة الانسان ، ثم ان ترمي البصر الى الوراء وتفكر في القرون المتطاولة التي استغرقها عمل تدجين اسلافه ، وكيف صيدت الجراء البرية وربيت مع اولاد الكهوف تلعب وتأكل وتتصارع وتنام معاً حول نار الكهف ، ثم تعدو وراء فريسة واحدة ، تنسر اللحم الطريّ

منها ، وتكسر عظمها ، حتى صار الكلب الى ما صار اليه الآن ، صديقاً للانسان اكثر من كونه خادماً له . وقد كانت القارة الاميركية يوم كشفت سنة ١٤٩٢ تؤوي ملايين من السكان في مراحـــل متفاوتة من الحضارة . كان عندهم كلاب اليفة ولكن لم يكن عندهم جياد ، وكانوا يملكون ادوات ظرانية واخرى مصنوعة من الفلزات الليّنة ، ولكن لم يكن عندهم لا حديد ، ولا محاريث ، ولا عجلات . فأسلاف هؤلاء السكان ، كانوا قد كشفوا اميركا وجعلوا يقطنونها بعد ان اخترع البشر تدجين الكلاب وصنع ادوات الظرّان والخزف ، ولكن قبل ان يخترعوا تدجين الجياد وصنع العجلات والمحاريث والحديد .

النباتات

ويعدل ما تقدّم عجباً ، بل يفوقه في ذلك ، اختراع النباتات . كلّ شيء نأكله تقريباً ، اذا استثنينا لحم الحيوان ، هو جزء من نبات ولّد توليداً دقيقاً من أصول مختـارة : القمح والسكر والفواكه والجذور ، الطباق الذي ندخنه ، والقنّب والقطن اللذان ننسج اليافهما — هذه جميعاً وغيرهـا كثير ، كانت في زمن مضى ، نباتات برية تنمو في الادغال ، واذا رجل ذكيّ — او امرأة ذكية — يجد واحدة منها فيذوق طعمها ، او يمتحنها ، ثم يكتشف بالتجربة الطويلة الدائبة كيف يربيها ، فجعل يحسنها ويسمّدها ويزاوجها بغيرها ، فهو قد اخترعها حقاً كما اخترع ديزل محرّك الاحتراق الداخلي المعروف باسمه ، وقد ضاعت اسماء هؤلاء المخترعين ، الاّ ان

تكون مختفية وراء اسماء ديونيسيوس وديميتر وهياواثا ، التي لم تزل منذ قديم الزمان تجلّ على انها الآلهة التي علّمت البشر كيف ينتفعون بالنبات . ولكن دراسات علماء النبات والآثار في العصور الحديثة تحدثنا عن البلاد التي عملوا فيها. فمعظم النباتات الزراعية دُجنت في مناطق قليلة على سطح الارض . وقد جاء اكثرها من هضاب الصين الغربية ، ثم من الهند . وجاءت الطائفة التي تليها من الهند الشرقية ثم من نجود آسيا الوسطى ، حيث نشأت الحنطة التي نصنع خبزنا منهـــا ، ثم من آسيا الصغرى المنزل الاول لبساتيننا ورياضنا (وهل كانت جنة عدن غير هذا ؟) ثم من منطقة البحر المتوسط ، واخيراً من اميركا الوسطى ، ومرتفعات الاندلس ، وحوض الامازون ، ذلك الصقع الخصيب المحجّب بالاسرار، حيث وجد احـــد المخترعين في جيلنا ، سمّا هو الكوداري ، فأحاله وسيلة فعّالة من وسائل الشفاء .

هذه هي البداية الحقيقية للحضارة ، ففي ذلك العمـــل البطيء الدائب تمكن الناس من تحسين النباتات ، فأفضى تحسينها الى تحسين الناس ، ومن ثمّ بدأوا يعيشون عيشة استقرار ، وصاروا جماعة ، آية ذلك ان اسماء الأسر الاولى كانت تنسب الى الحرف التي تزاولها ومن هنا اسر : الفلّاح، والطحّان ، والبستانيّ ، والنجّار ، والحدّاد ، والصيّاد (يقابل هذه الاسماء العربية المنتشرة اليوم اسمـاء انكليزية لا تزال

من اوسع الاسماء انتشاراً : طحّان MILLER حدّاد SMITH نجار CARPENTER وما اشبه ذلك) .

ثم طرأت الفلاحة، فأصلحت الارض بازالة الشجر والعشب ونزح الماء ، وتلاها استكشاف صناعة الري المعقدة ، وهي صناعة ما نزال حتى يومنا هذا نعنى بتحسينها. ونشأة المزارع والمصايد والصناعات اليدوية تستتبع قيـــام سوق، والسوق توجد القرية ، وتكبر القرية فتصير بلدة والبلدة مدينة . ومتى زرعت الحقول ووضع نظام للريّ ، عمد الناس الى اختراع قواعد تتّبع ، وملاحظة تعاقب الفصول ، وهكذا نشأت القوانين ، وصنع التقويم ، واصبح الفلك ديناً وعلماً في آن .

وكذلك تمّ لنا عن طريق التعلم ، وتوسيع نطـــاق المعرفة ، ان انتقلنا من الحيوانية البدائية الى الانسانية البدائية المتوحشة ، ومنها الى الحضارة . وانت تسمع بعض الناس يقولون في هذه الايام « إن نشوب الحرب التـــالية خليق بأن يقضي على الحضارة » وقد يعني هذا نهاية عصر من عصور الحضارة ، وقد نصير نحن او من يبقى حيّاً منا ، او ذريتنا من بعدنا ، متوحشين مرة اخرى ، زمنـــاً ما ، ولكن ما دامت كرة الارض تصلح داراً للأحياء ، ومـــا دام مخّ الانسان الذي لا يزيد وزنه على ١٤١٧ جراماً هو هو ، اداة عجيبة للاستكشاف والاختراع والملاءمة ، فاننا سنبقى قادرين على ان نعيد بناء الحضارة ، بل سنلفي أنفسنا مسوقين الى إعادة بنائها .

الفصل الثالث

الحضارة والفكر

في كلّ ثقافة من الثقافات العظيمة ضروب من البراعة خاصة بها، وهي جميعاً مظاهر رائعة للعقل وقوته. بيد أن ثقافتنا — الحضارة الغربية — هي اكثرها اخذاً به، فهي تفوق الثقافات الاخرى في كونها نتيجة للفكر المنظم. والعالم بأسره ينتفع بمخترعاتها، وقد اخذت عنها الحضارات الاخرى اساليبها العلمية، ومثلها في التربية، وتقديسها معرفة القراءة والكتابة، ثم جعلت تحوّلها.

وتاريخ الحضارة الغربية خلال ثلاثة الآلاف السنة الاخيرة — بما فيه من الوان الخطأ والسخف — لن يفهم على افضل وجه الاّ من حيث هو سجلّ حافل بمغامرات العقل المفكر. وقد قال غيبون ان التاريخ «لا يعدو ان يكون سجلاً للجرائم وضروب الحمق، والمصائب التي نزلت بالبشر» ولكن غيبون كان يعوزه المزاج والحكمة اللذان يمكنانه من تقدير

النشاط الفكري المتصل في ميادين القانون والدين والفلسفة والخبرة السياسية وتجربتها ، والابداع والتجديد في التربية وفنون الجمال ، وهذه وحدها هي التي جعلت كتابه في تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهورها جديراً بأن يكتب ، ويلوح أنه لم يكد يوجّه عنايته الى ما سبق قيام الامبراطورية الرومانية من قرون عديدة كانت حافلة بالمآثر . كان ولا ريب ، مؤرّخا جمّ النشاط ، فخم الاسلوب ، ولكن عقله كان ضحلاً غير ذي روية . وأنت ترى ان الجرائم وضروب الحمق ، هي اشياء تشترك فيهـــا جميع المجتمعات البشرية . الرئيس العربيد ، والعالم المنحرف ، والكاهن الغليظ القلب ، والجندي الغبيّ – نماذج من الناس تجدها في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وتراها في الاكواخ والقصور ، وقد نشأت في العصر الحجري ولن تزول من العصر الذري . ولكن الفارق الخاص الذي قامت ثقافتنا عليه وساعد على حفظها وصيانتها هو – **الفكر** .

اما الذين يساورهم الاسى على مستقبل الحضارة الغربية المضطرب ، فهم عـــادة قوم لا يعرفون تاريخها كاملاً . وهم ايضاً يسيئون فهم صلتنا بالاغريق والرومان ، فيتصورونهم شعوباً متغلغلة في بُعدها عنا ، وان حياتهم ومآتيهم شيء يعنى به علماء القديم دون غيرهم ، وان لغاتهم وافكارهم قد طاف بها طائف « الموت » . وليس ثمة ريب في انهم يحسبون

الاغريق والرومان أدنى منا الى « البدائية » بدلاً من ان يحسبوهم في غير ناحية واحدة أنضج منا رأياً وأبعد تقدماً في المعرفة والخبرة . وكأنهم بما يفعلون يعدّون بيتهوفن متأخراً اذا قيس بأحد الموسيقيين المحدثين ، لأنه لم يكن يملك وسيلة من الوسائل الحديثة التي تعين الاصمّ على السمع . وحقيقة الأمر أن هذه الأخطاء مردّها الى ايمان ساذج فطير بالتقدم او الارتقاء على انه حركة متصلة خلال التاريخ ، تكاد تنطلق من تلقاء نفسها ، وانها تتبدّى اكثر ما تتبدّى في المخترعات الميكانيكية .

والارتقاء لم يكن حركة متصلة خلال الثلاث آلاف السنة الاخيرة من تاريخنا ولا خلال الثلاث مئة الاخيرة ولا الثلاثين . ليس الارتقاء خطاً يسير سيراً مطرداً الى فوق ، الى ما لا نهاية له . انه خطّ منعرج ، فيه انحدار سحيق هنا وهناك يمثل كارثة ما حلّت بالبشر ، وكل ذروة من ذرى المنعرج تمثل نجاحاً اصابته الحضارة الغربية . ودون الذرى العليا ذرًى متطامنة اخرى ، واكتاف ، تفضي اليها صعُداً . واعلى هذه الذرى ذروتان تكادان تتساويان شموخاً . ونحن نقف على ذروة هي دون ذروة الاغريق والرومان في بعض الاشياء ، وعلى ذرًى اعلى من ذراهم في بعض الاشياء ، وينبغي لنا ان لا نملّ النظر اليهم حتى نستطيع ان نفهم مصيرنا .

الاغريق

تبدأ قصتنا مع الاغريق بعيد السنة الألف قبل الميلاد. وقد نشأت حضارات أخرى قبلهم بزمن طويل، وكانت هناك حضارات معاصرة لهم، أغنى وأفخم، ولكن الفكر الاغريقيّ دون غيره، دأب على التفكير الجدّ ولم ينفكّ، وكان تفكيره يدور على الأكثر، حول معاني الانسان. وقد عدّ الاغريق انفسهم جزيرة يحيط بها «البرابرة» — وهذا اللفظ في عرفهم كان يعني الناس الذين لا يعيشون وفقاً لنواهي العقل: أناس ذوو أطوار غريبة كمثل المصريين القدماء الذين كانوا ينفقون الملايين على تحنيط موتاهم، واقوياء ذوو شراسة كالاشوريين الذين كانوا يعبدون آلهة نصفها حيوان، ورحّل بدائيون، لا يعرفون القراءة والكتابة، وكان لزاماً عليهم ان يحملوا اسلحتهم اينما ذهبوا، وذوو تعصب من أتباع الشعائر كاليهود، وشعوب مستعبدة كالاقوام الخاضعة لفارس. ونحن نتصور الاغريق على انهم كانوا قوما ذوي بشاشة وسكينة، نالوا السعادة المتزنة. ولكن لعلّ «نيتشه» كان على حقّ في انهم كانوا يحسون دائماً بضغط هائل واقع عليهم من قبل «البربرية» خارجهم وداخلهم، وان حضارتهم لم تكن نموًّا طبيعياً تمّ بغير مجهود، بل نتيجة جهد باسل، يحفزه ويدفع اليه توتّر نفسيّ حادّ. فكأنهم كانوا يشعرون كما تشعر حفنة من

العقلاء تعيش في عالم مجانين ، فهم يخشون عدوى الجنون التي تهددهم ولا تكفّ .

ولكنهم كانوا اكثر الاحيان ، يحسون انهم قوم بلغوا مرتبة النضوج ، تحيط بهم عقول لم تتح لها فرصة النموّ ، وان بعض هؤلاء ، يستطيعون ، وان كانوا برابرة ، ان يتعلموا . فما كان الاغريق يتخذون لون البشرة للتفريق بين الناس ، ولا كانوا يعترفون بوجود حواجز حول ثقافتهم قائمة على الجنس او الطبقة الاجتماعية او القومية ، فكلّ «بربري» يستطيع ان ينضوي تحت لوائها اذا تعلم كيف يتكلم اللغة ، وكيف يتصرف تصرف الرجل المهذّب ، وكيف يفكر . وكثيرون من الذين نعدّهم إغريقاً خُلَّصاً ، وردوا على اللغة والثقافة الاغريقيتين من بلاد نائية ، اي « هاجروا » الى الثقافة الاغريقية . وبعض ما للقديس بولس من منزلة يرتدّ الى انه ولد ونشأ يهودياً ولكنه نبذ شعائر اليهود وانكفاءهم ، ومضى يدعو الى ديانة عالمية باللغة الاغريقية ، وهي لغة دولية ، في العالم الاغريقي الروماني .

وفي امور العقل لم يكن الاغريق معلمي معاصريهم وحسب — كاليهود والبارثيين والرومان والمصريين والبرابرة المشردين والهنود البعيدين — بل كانوا ايضاً معلمي جميع الذين تبعوهم في حضارة الغرب الى يوم الناس هذا . انهم معلمونا ومعلمو ابنائنا . وليس في وسعنا ان ننكر ذلك

الاثر القوي . واذا نحن تجاهلناهم فقد جعلنا انفسنا عرضة لاضعاف عقولنا وافقارها ، وتجريد بيوتنا الروحية من فحواها وادخال ارواح غاشمة غبية لتقطنها .

وقد لخص احد كبار الاساتذة المعاصرين اثر الاغريق في كلمة واحدة ، ثم الف ثلاثة مجلدات ضخمة لوصفها ، وهذا الاستاذ هو فرنر يايجر ، الاستاذ في برلين سابقاً وفي هارفرد الآن . اما الكلمة فهي « بيديا » واما الكتاب فعنوانه : (« بيديا » : « مثل الثقافة الاغريقية ») وقد وضع مؤلفه باللغة الالمانية ثم نقل الى لغات كثيرة ، واما الفكرة التي قام عليها فقد سلم بها اهل الروية من علماء تاريخ الفكر . وخلاصتها هي كما يلي :

ان لفظ « بيديا » في اللغة الاغريقية يعني « التربية » (وهو اللفظ المستعمل في المقطع الاخير من كلمة « انسكلوبيديا ») ، ولكنه يعني ايضاً الحضارة — الثقافة في اسمى معانيها . وذلك لان الاغريق كانوا يعتقدون ان كلّ حضارة وكل ارتقاء يقومان على التربية ، التربية التي تدوم ما دامت الحياة ، والاستمتاع بأعلى قوى العقل وتحسينها تحسينا لا نهاية له . اما شعوبنا فقد اخذت بأن حضارتها تعني القوة والسلطان — او خدمة إله او ملك ذي سلطان منزل ، او الثروة والرفاهية . وثمة شعوب كثيرة في عصر الناس هذا يبدو كأنها تؤمن بأنه اذا اتيح لكل

فرد كفايته من الطعام والشراب ، واذا حاز سيارة وبضع آلات أخر ، فان الحياة تبلغ ذروة الكمال . وقد كان الاغريق يستمتعون ايضاً بالحياة واطايبها : الخمر ، والنساء ، والغناء ، والرياضة ، والرقص . ووقف كثيرون منهم كل كيانهم على الملذات ، والمسرات العابرة ، ولكنهم كانوا يعرفون ، في صميم نفوسهم ، ما هو أفضل من ذلك ، وكان اعظم اعاظمهم يقفون حياتهم على الولاء له ويحرصون على الظفر به والحفاظ عليه ، وهذا الشيء هو بكل بساطة تحسين العقل . وقد نظم شعراؤهم الشعر ، وألف فلاسفتهم ومؤرخوهم الكتب ، وخطب خطباؤهم ، لكي يعينوا الناس على التفكير . فقد كانوا معلمين : هوميروس ، وأسخيلوس ، وارسطوفانيس ، وثوسيديديس ، وافلاطون ، وارسطوطاليس ، وبندار ، وسيمونيديس ، وميناندر ، هؤلاء وغيرهم كانوا في المقام الاول : اطباء نفوس او حكماء .

وهذا هو السبب الذي لا يزال يحملنا على مطالعة مؤلفاتهم ، ونحن نطالعها لا لأنها «تاريخية» بل لأنها تعلمنا وتحملنا على التفكير ، ولن تجد في مكان آخر من الآداب العالمية ، في أية لغة من اللغات ، أو عصر بعينه ، مجموعة من الكتب تتصف بما تتصف به كتب اليونان ثم كتب الرومان بعدهم ، من ثروة ذهنية وتنوّع وتفكير عميق . والغرض الأول من دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية انما هو للاستعانة بهما

على قراءة هذه الكتب في لغتها الأصلية . وكل غرض آخر هو ثانوي او يطلب للتخصص . أما الترجمات فلم تبلغ الغاية من الجودة — وبعض ذلك مردّه الى قلة المترجمين المجيدين ، وبعضه الى ان اللغة الانكليزية افقر واضعف من اللغة الاغريقية ولم تبلغ حتى الآن في لطافة تعبيرها مبلغ اللغة اللاتينية .

وليس بالغريب ان تنصرف اذهان القراء الغربيين الى تلك المجموعات من الكتب التي تعرف باسم العهد القديم والعهد الجديد . واذا جاز ان تعقد موازنة بين كتب الكتاب المقدّس وكتب الاغريق والرومان ، فلا مفرّ من الاشارة الى فرقين خطيرين . اما الاول فهو ان اسلوب الكتاب المقدس ابسط كثيراً وادنى الى الرتابة ، وان كتبه اقل عناية بالتركيب المنطقي والفني . اما الثاني فهو ان الكتاب المقدّس يعتمد اكثر ما يعتمد على السلطة والوحي فنواهيه بلّغت من اله الكون الى الناس بوسائل شتى ووسطاء مختلفين . اما الاغريق وخلفاؤهم الرومان فلا يستعينون بالسلطة الالهية ، والصوت الذي يصغون اليه ليس صوت قوة من وراء طاقة البشر ، بل هو صوت العقل يبحث في تؤدة ، ما هو كائن ، وما كان ، وما ينبغي ان يكون . وقد سئل احد الحكماء في عصرنا ما هو الاثر الفذّ الاكبر الذي خلّفته يونان واضافته الى خير العالم فقال : أعظم اختراع تمّ للاغريق هو قولهم : « إما كذا وإما كذا » وبغير

هاتين الكفتين في الميزان يستحيل على المرء ان يفكر .

واذن فالاغريق قـــد علّم بعضهم بعضاً ، بالتفكير والتحدّث والكتابة . ثم علموا بقية العالم الغربيّ . ولعل اعظم غبطة يصادفها المرء في دراسة تاريخ الفكر وفنون الجمال ، هي ان يتبيّن كيف تتجلى افكارهم — او بالأحرى افكار العقل الذي كانوا هم صوته الناطق — حيناً بعد حين في ازمنة غـــابرة ، واشكال وصور معقدة ، وبين اقوام لا يعرفون سوى القليل من اللغة الاغريقية معرفة مباشرة . وهذا في حدّ نفسه من الادلة الأصيلة على قوة العقل الحرّ . واذا فتحتَ المهزلة الالهية لدانتي وتتبعت الشاعر في وصف هبوطه الى الجحيم المنقسم ثلاثة اقسام حيث يعاقب على العهر والعنف والخداع ، تبينت النظام الاخلاقي الذي وضعه الفيلسوف الاغريقي ارسطوطاليس ، واذا شاهدنا «ماكبث» مأساة شكسبير ، لاحظنا ان شكل المأساة ومعناها الاساسي هما من اختراع شعراء الاغريق . اما توازن السلطات الذي يقوم عليه الدستور الاميركي فقد صاغه اولاً مفكر اغريقي ، وكذلك كان المعلمون الاغريق اول من وصف المثل الاعلى — اخاء الناس !

الاغريق والرومان

كان الرومان التلاميذ الأوّل للاغريق ، ولم يكن فيهم

ما يبشر ، فأطلق الاغريق عليهم لفظ « البرابرة » عند اللقاء الاول ، وقد عدّوهم قوما ذوي عزم ومضاء ، ولكنهم عدّوهم ضعاف العقول ايضاً . وقد دخل في طوق روما ان تخضع العالم الغربي لسلطانها وان تدير شؤونه ، غير مستعينة بالفن الاغريقي ، ولعلّها كانت خليقة ان تظلّ ، كبعض الامبراطوريات الحديثة ، دولة ذات بربرية وجفاء حتى بعد ان قبضت على زمام الثروة والقوة . ولكن الرومان ، انحنوا بتواضع وهم في غمرة فتوحاتهم ، وجعلوا يتعلمون من الاغريق . لم يكن عندهم يومئذ آداب ذات قيمة باقية ، ولا علوم ، وما كان في وسعهم ان يفكروا تفكيراً فلسفياً ، حتى لغتهم برغم قوتها وليونتها ، كانت غليظة . فعلمهم الاغريق في جميع هذه الميادين ، وكجميع المعلمين الصالحين ، ابرزوا فيهم خلال تعليمهم إياهم صفاتٍ كامنةً كانوا هم ، الاغريق ، خلواً منها او يكادون ، فأسفر كلّ ذلك عن ازدهار جديد للثقافة الاغريقية في منبت جديد هو ايطاليا — او قل وهو أصدق ، إنه أسفر عن خلق ثقافة جديدة مشتركة هي الثقافة او الحضارة الاغريقية الرومانية ، التي اندمج فيها عنصراها شكلا وفحوى ، اندماجاً لا انفصام له . ان قصيدة فرجيل « الانيادة » هي اللغة الرومانية وقد افرغ في إنائها الخيال الاغريقي ، أو هي الشكل الاغريقي وقد تسامى فيه شعور روما برسالتها واقدامها وتبعتها وتقاليدها . (اما المهزلة الالهية

لدانتي والفردوس المفقود لملتون فهما احدث عهداً ولكنهما صنوان وتابعان لانيادة فرجيل .)

وقد كانت تلك الحضارة بما انطوت عليه من علم ودقة نظام وانتاج واحترام للقانون وذكاء وذوق وأدب وحريات روحية وفردية — اذا استثنينا عهود الحكم الفاسد والازمات الخطيرة — كانت تلك الحضارة في اكثر وجوهها اكبر نجاح احرزه الناس في العيش الاجتماعي ، في العالم الغربي . فقد كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في السنة ١٥٠ بعد الميلاد اكثر كثيراً من الذين يعرفونها في السنة ١٣٥٠ او ١٥٥٠ او حتى ١٧٥٠ او ١٨٥٠ بعد الميلاد . وكان العبيد في السنة ٢٠٠ بعد الميلاد افضل من عبيد الاقطاع في السنة ١١٠٠ او ١٨٥٠ بعد الميلاد ، وأحسن حالا ، بما لا يقاس ، من المسجونين العبيد في معتقلات المانيا سنة ١٩٤٤ ومعتقلات روسيا سنة ١٩٥٤ . وليس ثمة ريب في ان حضارة الاغريق والرومان كانت غير كاملة من جميع نواحيها — وايّ اثرٍ من خلق الانسان يبلغ الكمال ! — ولكن محاسنها ومزاياها كانت اكثر من مساوئها فكانت من هذا القبيل افضل من معظم الثقافات الاخرى في تاريخنا . وبخاصة في موضوع المعرفة ونشر الفكر نشراً حرّاً . فقد كانت المدارس قائمة في كل مكان او تكاد . وكثر وجود الكتب وخزائنها في اوربا وافريقية الشمالية ومصر والشرق الادنى . وكان المعلمون

والفلاسفة الجوّالون والخطباء والدعاة الدينيون والاجتماعيون يقطعون المسافات البعيدة بين مدينة ومدينة، يتناقشون في فصاحة ويشرحون في حرية. وافضل وثيقة تبسط هذا النشاط هي «كتاب اعمال الرسل» في «العهد الجديد»، فاذا راجعته وجدت فيه كيف عمد محافظ مدينة افسس الى تهدئة روع الشعب بحجته اللطيفة بعد ان ثار فيها شغب على بولس الرسول يوم قام يكرز ضدّ عبادة الاصنام، ثم نلاحظ كيف يتودّد اليه اهل الفكر في اثينا ويدعونه ليشرح لهم مذهبه الجديد، ثم كيف صرفوه في ادب حين تبسط في موضوع «قيامة الجسد» وكيف انتهى الامر في هدوء بعد عودته الى روما «يكرز ويعلم وهو واثق، وليس ثمة رجل يمنعه من ذلك». وقد حفل عالم الاغريق والرومان بألوان من النزاع ولكنها كانت جميعاً دليلاً على حركة الفكر، فلم يكن ثمة ثبَتٌ بكتب محرّمة. اما الرقابة فكانت محدودة وخفيفة وعلى فترات قصيرة، واما الشرطة السرية فلم يكن لها وجود كمؤسسة من مؤسسات الدولة. وكان التزام الناس للعرف وتقيّدهم به اقلّ كثيراً مما تراه اليوم في دولة قومية حديثة. والحقيقة انه لو اتيح لنا ان نعود يوماً واحداً الى روما او اثينا او انطاكية او مرسيليا كما كانت في العصر القديم، لوجدنا فيها ما يحيّر من تباين الرأي وخروج على المألوف، وما حفلت به من إغراء بالتحرّر الادبي والعقلي، على وجه قلما تلقاه في شعوب العصر الحديث.

والنصارى الأول نالت منهم حريات العالم الاغريقي الروماني اكثر مما نالت منهم قيوده ، فقد كانوا يتمنون تضييقاً للحرية بعض التضييق ، لا مزيداً منها .

الانهيار ، البقاء ، الانبعاث

ولا يدري احد لِمَ انهارت تلك الحضارة المتصفة بالسعادة والفكر . ولا كان اهلها يدرون. ولن تجد بين الناس اليوم احداً سوى فئة قليلة من كبار العلماء تستطيع ان تقدّر الاسباب الرئيسية وتبوّبها ، ومع ذلك فاننا على يقين من شيء واحد هو ان الجانب الغربي من الامبراطورية ، اي الجانب الروماني ، هو الذي سبق الى الانهيار . اما الجانب الشرقي ، الذي يتكلم اهله باللغة الاغريقية فقد صان كيانه من الحملات المتصلة الموجهة اليه مدة الف سنة اخرى . ولو سئل الباحث ان يقترح تفسيراً واحداً لذلك الفـــارق بين الجانبين ، لكان خليقاً به ان يقول ان رجال الغرب آثروا الثروة والملذات ، واما رجال الشرق فقد آثروا التفكير . وما زال الامر كذلك حتى افضى حب السلطان والاستغراق في الملذات الى ايهان شدة الرومان وشعوب الولايات التابعة لهم . اما الاغريق المتصفون بالمرونة فقد مضوا في طريقهم يتحدثون ويتناقشون ويحاربون ويخترعون . والعقل ان لم تهمله وتكف عن استعماله مَعينٌ لا تنضب قواه .

وحتى بعد ان دمرت الامبراطورية الغربية ، وتخربت الطرق ، وتهدمت الجسور ، وامتلأت المرافئ بالرمال ، وقطعت اقنية المياه ، وسدّت المصارف ، وحرقت المستشفيات والمكتبات وتحوّلت المباني العامة الضخمة الى منازل للمعطلين ، وبعد ان انحلّت اللغة وصارت لهجات ، وأمست معرفة القراءة والكتابة شيئاً نادراً وادنى الى السحر ، واضحى الكثيرون من الكهنان او القادة او الملوك وهم لا يكادون يقرأون اسماءهم او يكتبونها ، وبعد ان تداعى الى التراب حكم القانون ، وقام السلطان المنظم لاشقياء النظام الاقطاعي ، بعد هذا كله تجد ان حركة الحضارة الغربية لن تفهم على خير وجه وافضله الا اذا نظرت اليها على ان حركة **تعلّم** . فأفسد الامور لن يدوم . وأفسدها لم يدم حتى في العصور المظلمة . ففي المدن التي كثرت فيها عصابات السلب والنهب التي تدمّر ما لا قبل لها بفهمه ، كان ثمة فئة قليلة من المتفائلين الحكماء ، يهجرون الدنيا الى اماكن منعزلة هادئة ، يتعلمون وينسخون ويصونون التراث . ففي دير هنا ، وغرفة منفردة هناك ، جلس طلاب المعرفة يدأبون على فهم الافكار الخطيرة التي خلفها العصر القديم في نثره وشعره ، وعلى تعليم غيرهم ان يفهموا وينقلوا ما يفهمون ، وكذلك استطاعوا ، رويداً رويداً ، ان يبنوا عالم العقل المحطّم بناء جديداً .

وحتى البرابرة تعلموا من العالم الاغريقي الروماني بعد

ان اغاروا على حضارته ودمّروا شطراً كبيراً منها. فمن اعماق ذلك الظلام استطاع اسلافنا ان ينهضوا شيئاً فشيئاً، كما نهض اسلافهم من اعماق ظلام اظلم، او كما قد يفرض على اخلافنا ان ينهضوا مرة اخرى. إنها لقصة طويلة معقدة تشمل ألف سنة حافلة بالصعاب، ولكن اذا قررنا ان الغرب بلغ الحضيض حول السنة ٥٠٠ بعد الميلاد، تبين ثلاث مراحل رئيسية في النهضة التي تلتها:

١ — سنة ٨٠٠ التي انشأ فيها شارلمان نظاماً سياسيا تخطّى الحدود القومية ووضع أسس التربية العالية على نطاق واسع. (فالحروف الغربية الشائعة اليوم في الطباعة اخترعها علماء شارلمان تلبية لرغبته).

٢ — سنة ١١٥٠ يوم كانت ثقافة القرون الوسطى التي تفوق ثقافة عهد شارلمان سعة وتوهجا، مزدهرة في الكتب والمعاهد والمعابد والعقول الكبيرة.

٣ — سنة ١٤٥٠ يوم شرعت اوربا الغربية تقبض مرة أخرى على عنان الفكر الاغريقي الروماني كله، وترمي بصرها بطرق شتى الى آفاق وراءه. ففي هذه الالف من السنين كان اسلافنا يتتلمذون على الرومان اولا ثم على الاغريق. وعن طريق التعلّم امسكوا بزمام الحضارة. فأصحاب اكبر العقول في حضارتنا منذ سنة ١٤٥٠ كانوا

عيالاً في المعرفة على الرومان والاغريق . ولم نأخذ عنهم بعد كلّ ما ينبغي ان نأخذ ، فلا يزال بيننا برابرة ، وقد كان ادولف هتلر ، بصليبه المعقوف وشعائره الدموية وكرهه للمنطق احدهم ، وسيليه آخرون .

ومع ذلك فالذي يبعث على الغبطة هو ان نلقي نظرنا على تلك الفترة الطويلة ، فنرى — مع ان عمل التعلم لم يكن عملا مطرداً — كيف اخرجت قدراً كبيراً من خير ما عندنا . ففي وسعنا ان نراقب نموّ التفكير الفلسفي والديني في اوربا واميركا ، فنلفيه نضالا مديداً حاول فيه المفكرون في اربعين جيلاً متوالية ان يفهموا عقل افلاطون القويّ ، وان يقاوموا اغراءه . وفي وسعنا ان نتصور مؤلفاً في تاريخ الخطابة الغربية فنتابع كوكبها متهادياً من منابر الكنائس الهادئة الى منابر الثورة ، فنتبين بذور عبقرية شيشرون في تضاعيفه . وفي وسعنا ان نقرأ طائفة من افضل الشعر الاوربي اذا رجعنا الى تلاميذ فرجيل وحسب . او قد نستطيع ان نتتبع المراحل التي مرّ فيها عقل رجل واحد — مثل جفرسون او غيته — اذا نحن استقصينا صلته الوثيقة بالكتب القديمة الاثيرة لديه طوال حياته . ان كاتدرائيتي القديس بطرس والقديس بولس ، وقصر اللوفر في باريس ، ومبنى الكابتول في وشنطون ، هي مبان اغريقية رومانية ، وجانب كبير من الفكر والفن المخلدين فيها هو

الابداع الخالد للعالم القديم. وكثير من افضل ما نجده في الثقافة الغربية خلقه الاغريق والرومان او اوحوا به. ولو كتب على حضارتنا الانهيار من حوالينا، كما انهارت حضارتهم، فعلى اخلافنا ان يبنوا من جديد، كما يفعل سكان مدينة دمّرتها القنابل، معتمدين على الاسس الثابتة التي وضعت في العصور القديمة ومستعينين ببعض اللبنات التي نخلّفها نحن.

الافكار والتاريخ

ومع ذلك فما تقدم ليس سوى قصة ثقافة واحدة. فقد علّم الاغريق الرومان واضاف الرومان شيئاً كثيراً من مبتكَرهم. وقد مدّن الغرب الحديث نفسه بالتعلّم، على الاكثر، والأخذ من مُنجِبه العالمِ الاغريقي الروماني. ولعلنا نستطيع ان نستبين في عصرنا هذا علاقة تشبه هذه العلاقة. ان اوربا الحديثة، بما فيها من براعة، وجدل وحفز، اوربا المنسحقة والمستندة في الوقت نفسه الى ما لها من تقاليد عريقة غنية في الفن والفكر، — هي من غير ناحية واحدة كاليونان القديمة. واما اميركا الشمالية والجنوبية في العصر الحديث، فهي بالقياس الى اوربا، كما كانت روما بالقياس الى اليونان. كلتاهما ابسط، واجنى، واعنف وادنى الى الروح العلمية، واجرأ، واشد تفاؤلا، كلتاهما شديدة الاحترام للتقاليد القديمة، وشديدة العزم صادقة

النية أيضاً على ان تضيف اليها قوى وفضائل جديدة تخلقها هي — وهذا موقف حكيم .

اما قصص الحضارات الاخرى — الصينية والاسلامية والهندية والاميرندية (الاميركية الهندية) — فانها تثير من الاعجاب ما تثيره قصة الحضارة الرومانية الاغريقية ، وذلك بما تنطوي عليه من نمو داخلي اصيل تمّ بوساطة الاختراع الدائب ، والتعلم والتعليم ، في الشعب الواحد ، او في جماعة من الشعوب . واعجب من ذلك الوسائل التي مهّدت لنقل الافكار والاساليب والمعتقدات الدينية والنماذج الفنية ، والمبتكرات التي قد تتفاوت بين لحن شعبي ساذج وعلم عظيم خطير ، من ثقافة الى ثقافة اخرى تبعد عنها زمانا ومكانا ، وتختلف عنها نظاما ونطاقا ، وكيف تُضحي الثقافة المنقولة اخطر شأنا في مثواها الجديد منها في منبتها ، وكيف تُحْدِثُ في الحضارة الجديدة التي تدخلها ، وجوها من التغيير الاصيل يشمل هيكلها كله .

وعلى قدر ما ينبغي ان تكتب قصة كل حضارة على انها حكاية تفكير وتعلم وتعليم (بقدر ما هي حكاية تاريخ السلطان والثروة) كذلك ينبغي ان ننظر نظرة جديدة مضيئة كاشفة الى تاريخ البشر في ثقافاتهم المختلفة ، والى انتقال الفكر من جماعة الى جماعة على سطح الارض . وكثيراً ما نسيء فهم تطوّرات تاريخية خطيرة اذا نحن

فسّرناها تفسيراً سياسياً او حربياً او اقتصادياً. فإذا ما انعمنا النظر فيها على انها احداث عقلية، اتضح مغزاها الاكمل. وحسبنا مثلاً واحداً من آسيا المعاصرة. ففي الامبراطورية الروسية، نحو عشرة ملايين من المسلمين اكثرهم منحدر من الترك. فما هو الفرق بين خضوعهم للقياصرة وخضوعهم للشيوعيين. ان الفرق يُفهم على افضل وجهٍ اذا ادركنا حقيقة واحدة تمتّ الى التربية بأوثق سبب — بل هي التربية. فالمسلمون في الامبراطورية الروسية ظلّوا الى ما بعيد الثورة يستعملون الحروف العربية. وفي اواخر العقد الثالث من هذا القرن ألغيت هذه الحروف إلغاء رسمياً وحلّت محلّها ابجديات اخرى تعتمد على الحروف اللاتينية، فكان ذلك هفوة، لان حكومة تركيا اعتزمت ان تستعمل الحروف اللاتينية ايضا، ومن اجل ذلك حظرت موسكو استعمال الحروف اللاتينية سنة ١٩٣٩ واحلت مكانها ابجديات قائمة على الحروف الكيريلية (المأخوذة عن الاغريق وهي التي يستعملها الروس في منطقة موسكو). هذان التبديلان يدلان على ان الحكومة الشيوعية انتوت ان تقطع الصلة بين هؤلاء القوم وتاريخهم الاسلامي، وان تفصم العرى بينهم وبين اقاربهم في تركيا: فتحيلهم الى اقوام يعتمدون على موسكو. فالشيوعيون لا يحاولون ان يجعلوهم شيوعيين وحسب بل شيوعيين مسكوفيين ايضاً. فاذا نجحوا كان ذلك نتيجة لتطبيقهم تطبيقاً كاملا عملا من اعمال التعلم والتعليم.

والحقيقة هي ان تاريخ جانب كبير من القرن العشرين بنضاله ضدّ الشيوعية والفاشية والاشتراكية الوطنية وغيرها ، لن يكتب افضل كتابة ، إلاّ من حيث انه سجلّ لحرب غرضها السيطرة على عقول الناس . فالشيوعية والفاشية والاشتراكية الوطنية وغيرها من مذاهب عبادة الدولة ، فيها إغراء قويّ لذوي العقول الساذجة . وهي مجموعات من الافكار بعضها مصيب وبعضها مخطئ ، ولكنها تؤثر في النفوس بما فيها من جرأة وصفاء ، وبما تزعمه من قدرة على تفسير مشكلات البشر تفسيراً عقلياً كاملاً. ان شطراً كبيراً من مستقبل البشر رهن بالبراعة التي يُعْمَد اليها لتربية الناس على هذه الافكار ، او لقرع حجتها بحجة اقوى ، أو لإحداث تبديل فيها حتى تلبس غير لبوس لتوافق كل مجتمع على هواه ، ولتتسق مع الحقائق التي لا تحول ، أو لردّها ونسفها بنقد نافذ ، او لنبذها حتى يحلّ محلّها آراء اصدق وانفذ ، في حلّ المشكلات الانسانية الاصيلة .

الفصل الرابع

كنهه لا يُدْرَك

ليس في وسعنا اليوم ان ندرك مراحل هذه الحرب التي نخوض غمارها – والتي تستهدف استعباد العقل او تحريره. ومن المستحيل ان يتكهن المرء بحركة الذهن البشري، بل من العسير ان يؤرخ لها ويفصل عناصرها. ولا ادري أفي طاقتنا على الاطلاق ان نضع تاريخاً للفكر محكم النظام، يشرح القوانين التي يخضع لها في نموه وحركته ويفسّرها. ولكنني اعلم ان الذين يعنون في هذا العصر بدراسة هجرة الافكار وانتقالها من بلد الى بلد، يجدون وضع هذا الكتاب فوق طاقتهم. فالمؤرخون من امثال سوروكين وطوينبي، وعلماء الانسان من امثال كروبير ولنتون، يعانون مشقة كبيرة، في وصف الحوافز المتشعبة التي لا حد لنوعها، والتي توقظ العقل من سباته، او في تبين الطرق المتعددة التي يسلكها الفكر من عقل الى عقل، او من منطقة الى اخرى. وكل ما ظفر به العلماء حتى اليوم انما هو قواعد

عامة غامضة فيها معوان على فهم ما يكون — فالعقل من العجائب او من الالغاز .

فمن العسير مثلا ، ان ندرك كيف يتأتى لشعب واحد ان ينجب في قرن واحد ، الف مخترع وفيلسوف وشاعر وسياسي ، ثم لا تكاد تنقضي بضعة اجيال حتى يخرس لسانه ويعقم فكره. ولِمَ يزخر بلد ما بنشاط عقلي ما دام فقيراً مهدداً بالمخاطر ، ثم يقع في غيبوبة من التراخي متى ظفر بالثروة والامن ، على حين ترى بلداً مجاوراً له ، يظل صامتاً خلال قرون من الفاقة والذلة ، واذا به يفصح بعد ان يضحي ذا سلطان ومال ؟ وكيف تفسر ما يقع داخل بلد ما ، وفي ازمنة متفاوتة ، من إعجاب بالعلماء آنا وإهمالهم آنا ، او من إكرام للشعراء حيناً واستنكارهم وحشرهم في عداد ذوي الاطوار الغريبة من الناس حيناً آخر . إننا نعلم حق العلم ما يقع حينا بعد حين ، لرجلين او لجماعتين في اقطار مختلفة من الظفر بكشف واحد ، او ابتداع افكار واحدة ، دون ان تكون ثمة صلة معرفة بينهما . ان هذا لغريب ، ولكن اغرب منه ان يقرأ المرء تاريخ العبقرية ، مستطلعاً متبيناً عدد العقول الشوامخ التي نجمت في بلاد منعزلة ، او قبائل متوحشة ، او عصور اثقلها القدع والعنف البغيض .

اذا صعّد المرء في الجبال الغربية ، فانه يعبر في الحين بعد الحين ، كتفاً من صخور مكسرة كالحة ، لسعتها الرياح بسياطها ، او ضربها الثلج ، واذا به يلقى في طريقه فجوة صغيرة ، وفي الفجوة خمة من الازاهير المشرقة الندية . وقد يلقي نظرة في الحين بعد الحين من ذروة بلغها ، فيرى احد مخارم الجبال القاحلة ، حيث الجدران الصخرية تردد صدى هدير النهر المندفق في القاع ، او دمدمة الكتل المتداعية ، ومن فوقها الذرى الذاهبة في الفضاء ، ويتبين ان ليس فيها رقعة من خضرة ولا حفنة من تربة مغذية على مرمى البصر ، واذا به يرى عند وسط المنحدر شجرة صنوبر مدت جذورها في تربة لا ترى ، ورفعت رأسها وبسطت اذرعها الضارعة في الهواء ، فآبت اليها العصافير ترف فيها ومن حواليها .

ان متعة هذا المشهد لا تقلّ عنها متعة مطالعة التاريخ لعصر دامٍ ، فتقرأ فيه وصف الاغتيال والتعذيب ، وتسمع ما يتردد في اروقته من اصداء الهدير الاليم الخافت ، والاناشيد المخنوقة ، وصيحات العنف الاهوج ، واذا بك ترى في وسط كل هذا ، عقلا كريماً نزلت عليه السكينة ، يدرس الطبيعة ، ويصنع الشعر ، او لعلك تكشف بين الفلاحين الكادحين او في اوساط الناس المكتئبين ، عقلا قوياً يتمرس

بصارعة الارقام المجردة ، او يبدع المخترعات الفذّة ، او ينشئ للكون تفسيراً محكم النظام .

كذلك كان بوذا ، وسيكويا ، الهندي الاحمر من قبيلة شيروكي، الذي اخترع وحده، لغة مكتوبة لقومه. وكذلك كان اعظم فلاسفة القرون الوسطى — يوهانس ساكوتوس اريوجينا ، — يوحنا السلتي من ارلندة — الذي يكاد يكون وحيداً في ذلك العصر من الاوروبيين الغربيين ، اذ استطاع ان يتعلم اللغة الاغريقية ، وان ينشئ صورة فلسفية روحية عظيمة للعالم الروحي ، يعجز اي مفكر في عهدنا عن مجاراتها . وكذلك كان غريغور مندل ، ذلك الراهب الهادئ الذي التزم جادة الصبر في تفكيره وعمله في حديقته ، حتى كشف لنا بعض القوانين الاصلية للوراثة . وكذلك كان الكثيرون من اهل الفن الذين عاشوا مغمورين ، وكاد نسيج النسيان ان يلفّ ذكراهم ، ولكنهم خلفوا لنا آيات في الجمال . اننا نعرف اسم اليخادنهو ، ذلك الرجل الذي يثير شفقتنا ، ولكنه مع ذلك صار اعظم مثال في اميركا اللاتينية . اما الذين حفروا النقوش في كاتدرائية شارتر ، فلا نعرف عنهم سوى ما خلفوا من اثر ، وليس في وسعنا ان نخمن تخميناً اسم الجنس من البشر الذي انجب ذلك الفنان الذي صنع من الشبه رؤوسا بديعة الشكل وجدت في موقع بنين بافريقية الغربية .

تركيب جديد

لا تقتصر المفاجآت في تاريخ الفكر على ظهور العباقرة هنـــا وهناك كالقمم الشوامخ المنعزلة ، بل تشمل ظواهر لا يتوقعها المرء ، ولا يكاد يسعه ان يفسّرها . فثمة رجال يحسنون التعبير عن عصرهم وبيئتهم التي تربّوا فيها ، ولكنهم بما يتصفون به من توهج الخيـــال ، وسعة المعرفة ، وتعدد نواحي القدرة تعدداً مدهشاً ، تراهم يرتفعون فوق مستوى عصرهم وجيرانهم ، فكأنهم من اهل زمانهم والابدية جميعاً. فاذا عمدنا الى تحليل عقولهم كان في وسعنا ان نتبين جميع العناصر التي تتألف منها تقريباً ، فنرتد بهذا العنصر الى الاسرة ، وبذاك الى المدرسة ، وبغيرهما الى الوسط الاجتماعي ، ومع ذلك فان العقل المركب من تلك العناصر هو اكبر واعظم من العناصر في مجموعها — فهو اغنى ، واشد توهجاً ، ويختلف في صفته الاصيلة كما تختلف الماسة عن الكربون . والذين لا يعنون الا بالضجل من امور الفكر ، يعجزون عن ادراك هذا الفرق النوعي وظهوره مرة بعد مرة في عالم الذهن . وهذا هو ما يحدو بعض النقاد الى ان ينكروا على شكسبير قدرته ان يؤلف مسرحياته ، لا لشيء سوى انه كان شاباً من اوساط الناس في الارياف ، ولم يذهب إلاّ الى مدرسة في بـــلدة صغيرة ليتعلم التمثيل . فكأنهم فيما يتوقّعون يُحتّمون ان يكون المؤلف الحقيقيّ رجلاً يستطيعون هم

ان يدركوا كنهه ، كالمحامي الذي يتلقى علومه في جامعة ، او كما يكون السياسي ، او كنبيل شاب انيق ظريف ، تجري في دمائه معـــارف عهد النهضة وتجاربه الاجتماعية . ولكنهم عـلى خطإ . إنهم يرتكبون خطأ اساسياً بسيطاً ، مؤداه أنهم يعتقدون ان في عالم العقل لا بدّ ان يكون حاصل جمع اثنين الى اثنين ، رقماً لن يتغير ، هو : اربعة .

ان تعليم هؤلاء الناس الافذاذ شيء مستحيل ، ولكن من نعم التعليم القليلة عـلى المعلم هي ان يتبين وهـو يعلم ، مرة بعد مرة ، كيف يخرج من جمـــاعة طلابه الاوساط ، طالب ليس فيه عـلى مـا تبدو صفة من صفات الامتياز ، ولكنه قد يسمع ملاحظة عابرة من معلمه او قـــد يثيره موضوع جديد ، فاذا بعقله قد حُفز ، واذا شخصيته تتبدل ، وحكمته تنمو . ويجعل يبتكر افكاراً اصيلة خـــاصة به ، وينضج نطقه وتحسن كتابته ، فيعيش وكأن الحياة تستحثه ، فيسرع تبدله حتى ليسبق اصدقاءه . ولو رأى نفسه كما كان منذ اثني عشر شهراً لانكرها وعجز عن تذكرها . وكيف تمّ ذلك ؟ مصادفة سعيدة ، او مجهود علويّ ، ماذا نقول ؟ فليس ثمة صور تعيننا على وصف ما حدث ، فهو لغز ككل عمل حيوي — لقد حدث شيء ، واذا طاقة العقل التي كانت متهافتة ومهملة ، والانفعالات التي كان يلهو بها من قبـل ، او كانت تلهو بـه ، قد اندمجت جميعاً في تركيب جديد ،

حي ، متوفّز خلاق . واذا اصدقاء الطالب واهله تأخذهم الدهشة ، ولكنه قلما يدهش هو ، لأنه يحسّ ان كل ما حدث لم يزد على انه تعلم ان يستعمل قوى هي قواه . واما المعلم فلا يدهش اطلاقاً لانه يدرك كنه الذخيرة المختزنة في عقل كل طالب وما تطويه من قدرة وإبداع ، لا حدّ لها ، ولانه — من حيث هو معلم — لا ينفكّ يرجو ويسعى الى فتح الخزانة عن ذخائرها .

واضافة الى ذلك تجد اولئك الذين يعتقدون ان القوى والنتائج في حياة العقل هي اشياء يدرك كنهها ويقدّر حسابها — كأولئك الذين يظنون ان بيكون او اكسفورد كتب مسرحيات شكسبير ، لان ذلك ايسر فهما — قلما يعرفون شيئاً يذكر عن التاريخ الشخصي للعبقري . وقد كتب جون مايسفيلد قصيدة مؤثرة وإن كانت نعوزها الاناقة ، وهي تمثل شابا حزيناً منفرداً في بلد بعيد وكيف كان يحاول ان يبث الشجاعة في نفسه ، فقال :

شاهدت ازهاراً تنمو في اماكن صخرية ،

ورحمة يسديها رجال قباح الوجوه ،

والكأس الذهبية يظفر بها اضعف الجياد في السباق

ولذلك اومن . . .

واحدى الحقائق التي لا يتطرّق اليها الشك في عظمة امجاد العقل — المخترعات والنظم الفلسفية ، والمسرحيات والصور ، والموسيقى ، والمكتشفات العلمية والمؤسسات السياسية — هي ان طائفة كبيرة منها ترتدّ الى رجال بدأوا حياتهم على نهج عادي او حتى في احوال غير مؤاتية ثمّ حلقوا بأجنحتهم متسامين فوق الاصول التي انطلقوا منها .

كان اسحق نيوتن ابن فلاح في لنكنشير ، ولم يكن ، شأن بعض الرياضيين ، ولداً نجيباً في حداثته ، بل كان طالباً وسطاً في جامعة كمبردج ، فلم تكد تنقضي بضع سنوات ، حتى انقدحت فيه الشرارة . اما غاوس احد قمم العباقرة في الرياضيات والكهربية المغنطيسية ، فكان ابن قرية كألوف ألوف غيره ، واما ونكلمان منشئ تاريخ الفن الحديث فكان يتردّى في الفاقة السوداء وبدأ حياته معلماً وضيعاً ، يعلم صفوفه طوال النهار ، وينام في مبنى المدرسة ، ولكنه كان يسهر نصف الليل ليعلم نفسه اللغتين الاغريقية واللاتينية تأهباً لعمله العظيم الذي كان يتراءى له غامضاً بعيد المنال . ثمّ هناك نجل سيد إيطالي وفتاة ريفية تعلم صناعة التصوير كما تعلمها ألوف من قبله ومن بعده . ولكن هذا الفتى كان ليوناردو دا فنشي . ان المصاعب التي من هذا القبيل تعرقل نمو العقل ، ولكنها لا تخمده ، بل عساها ان تحفزه حفزاً . حتى الرتابة ، وهي العدو العام للنمو ،

ليس في وسعها ان تفسد البذرة . فقد كان نويولا ، منشئ الرهبنة اليسوعية ، جندياً جاهلاً في عصر حافل برجال جمعوا بين السيف والسخف . وقد كان لوثيروس ورابليه راهبين لا يميزهما ميز عن حشد كبير من الرهبان في بلاد وازمنة اخرى . وكان سقراط بناء في مدينة تكتظ بالبنائين . كلا إن تاريخ الفكر البشري حافل بآيات التنوع والعجب والمفاجأة والغموض ، شأنه في ذلك شأن سائر ألغاز الكون. والعلم في بحثه عن القوانين يميل الى المغالاة في تبسيط الامور . ولكن العالم الحكيم يشقّ طريقه دائماً في عالم القوانين الى منطقة العجب والانبهار . وقد يستغرق بضع سنوات قبل ان ينفذ الى فهم مبادئ حياة النبات والحيوان ، وتناسلها ، وانتشارها على سطح الارض ، ثم يظل بعد ذلك منبهراً دهشاً لما يراه من تعدد اشكالها التي لا تحصى ، ومن براعة النبات التي تجلّ عن التقدير ، عالما انه اذا ما كشفت ضروب جديدة فانها قد تنطوي على خلق علوي جديد ، لم يكن في وسع احد ان يتوقعه . إن تعقيد اللغات البشرية ، وحياة الحيوانات المجهرية ، والاشعاعات التي تملأ الكون ولا تراها عين ، والقدرة على التحوّل الفجائي في الاجسام الحية ، كل هذه قد تدرك او تفهم الى حد ما ولكنها لن تدرك ادراكاً تاماً . وقد كان المفكرون في القرون الوسطى يقولون — وما اصدق ما قالوا — :

جميع الاشياء تنتهي الى ألغاز . اما نحن فليس القصد من وجودنا ان نكتفي بالتشخيص والتقدير ، بل هو ايضاً العجب والاعجاب ، وتوقع ما لا يتوقع .

العقل لغز

نعم ان العالم الخارجي – المرئي وغير المرئي – هو في خاتمة المطاف لغز . وكذلك العالم الآخر الذي نعيش فيه – العالم الداخلي ، عالم العقل . وليس بيننا من يعرف ما يحتوي عليه او ما في وسع عقله ان يفعل او ان ينتج .

ان جانباً من نشاط العقل الدائب المعقد ، خفيّ ولن يكشف عنه . ولا نكاد نتبين بعض خطوطه الغامضة ، الا في الفينة بعد الفينة ، في احلام او في اعمال لا غرض لها على ما يبدو . فالكهنة في كراسي الاعتراف ، وعلماء التحليل النفسي الذين يستمعون الى مرضاهم ، والمحامون في مواقف الاستقصاء وسبر اعماق النفوس ، والقضاة الذين يحللون اعمالاً فيها حيلة او عنف ، وعلماء ثقافات السلالات البشرية الذين يفحصون الاساطير ، والنقاد الذين يتغلغلون في القصائد ، هؤلاء جميعاً – ونحن ايضاً – حين يستمعون الى الموسيقى ، لغة الروح بغير الفاظ ، يلمسون شيئاً من ذلك العالم القوي المخيف ، ولكن لن يتاح لنا ان نعرفه معرفة كاملة . فكأنه

يتعمد ان يخفي عنا . ان اتباع فرويد بسّطوا المشكلة احياناً — اكثر مما يجوز تبسيطها — فقالوا ان النشاط الداخلي للعقل هو فوران مادة منفية للأخلاق جاء عليها الكبت والرفض والمراقبة ، — فكأنه هيكل حيّ مقيّد بسلاسل في داخل خزانة. ولكن الصورة الحقيقية أشدّ تعقّداً . ان عقلنا المفكر عاجز عن السيطرة على جانب كبير من حياتنا الخفية او عن مد يد المعونة اليه او عرقلة سيره ، بل هو عاجز عن فهمه . فالغرائز ، والذاكرة ، والاختراع ، والمخيلة — هذه وغيرها من وجوه النشاط ، خارجة عن نطاق الوعي الى حدّ كبير . وفي وسع العقل ان يلاحظها في خلال نشاطها ، وان يتدخل في شؤونها ، الحين بعد الحين ، وقد يتأتى له بعد جهد شاق دائب ، ان يؤثر فيها ، ولكن أصولها وقدرتها الكملة واساليبها تظلّ خارجة عن نطاق قدرته . وقد قال السيد المسيح : « من منكم اذا اهتمّ ، يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة » ، اما نحن فلنا ان نسأل انفسنا : افي وسع احد منا ان يتنبأ اليوم بالافكار التي قد تدور في خاطره بعد سنة ، او اسبوع ، او في غد ، او بعد ساعة واحدة ؟

فنحن جميعاً من اهل الكهف ، والكهف الذي نسكنه هو عقلنا . اما الوعي فهو كلمشعل الصغير ، يتراقص نوره ، ويتوهج ، ولا يسعه حتى في افضل الاحوال ان يهدينا الى

اكثر من خطوط قليلة على اقرب جدران الكهف الينا ، او ان يبين بانعكاس ضوئه ، نهرا يتدفق في غير جلبة او هدير في الجوف تحت اقدامنا ، واذا نحن نفزع الى الوراء قبل ان يغمرنا . واذا ما استكشفنا هذا الكهف وقعنا في كثير من الاحيان على اشكال ذات جمال ، واعمدة بلورية براقة ، او مرصعة بالجواهر ، او حيوانات دقيقة الشيات لينة الخلق تمدّ الينا يد الصداقة ، وقد نقع احياناً على مخلفات زمن سابق ، فنلفي انفسنا امام تمثال بدائي تزينه ازهار ندية عند قاعدته ، او امام اشباح وحوش مصورة وعلى مقربة منها آثار ايد دامية ، وقد نعثر في الحين بعد الحين بركام يتحرك ويدمدم ويطقطق ، ولكننا نشيح بضوئنا عنه ونستحث خطانا . وقد نسير في طريق يرسم في لفه ودورانه صورة معقدة مفصّلة ، مع ان اللهيب الصغير الذي نستضيء به لا يظهرنا الا على خطوط قليلة تلتقي ثم تنحني ثم تغيض في الظلام . وقد تضعف الاشعة احياناً ، منذرة بالخمود والانطفاء ، فنبقى وحدنا في ظلام دامس . ولا بد لنا في رحلة الاستكشاف هذه من ان نقعي ثلاث مرات على الاقل ، لان سقف الكهف منخفض ، فلا يسعنا ساعتئذ ان نمضي الا اذا حبونا على ركبنا ، فاذا خرجنا من الممر الضيق ألفينا أنفسنا في غار ارحب من الغار الاول ولكنه ادنى الى المهابة والرعب ، ففيه نسمع حفيف اجنحة لا ترى ، فوق رؤوسنا ، وفي جدرانه فتحات لا ينيرها الضوء الذي في يدنا سوى انارة

ضعيفة ، ولكنها تكشف لنا عن عيون تلمع وانياب تخيف مستقرة في فجواتها . واشد محنة نعانيها تنزل بنا ساعة نحاول ان نتكلم ، واذا الجدران المترامية الخفية والسقف جميعاً تشوه كلماتنا فتصبح اصداء قوية رهيبة تتضاءل رويداً رويداً حتى تصير وكأنها همسٌ من وراء الحياة او زمجرة بغيضة ، وبعد ان نقضي سنوات نجوّل في الكهف ، يقع الضياء من مشعلنا على سطح بركة هادئة فننحني فوق السطح الساكن ، ولكننا ننكر الوجه الذي يحدق في عيوننا القلقة الدهشة .

ان النفس مخبوءة عنا . ونحن لا نعرف انفسنا ولا اشقاءنا أو شقيقاتنا ، ولا ازواجنا او اولادنا ، ولا يعرف صديق صديقه .

ولكن اللغز فيه من العظمة قدر ما فيه من الظلام : الكهف معتم كئيب موحش لم يستكشف ، ولكنه يحتوي على كنوز . ففي مخ كل انسان قوة لم تستعمل ، ولن تجد في ملايين الملايين من الناس الذين عاشوا وماتوا ، سوى بضع مئات من الرجال والنساء الذين كان في طوقهم ان يسخّروا بعض تلك القدرة لتغيير العالم . اما البقية فمؤلفة من ناس يؤدون الواجب ، او يؤثرون التراخي ، خيّرين واشراراً ، يتساقون مع المتعة الحسية او ينكرون المتعة ويستنكرونها ، يقتصدون او يبذرون ، ذوي إقدام او ذوي إحجام . اما الذين لا يحصون الا بمئات الالوف وحسب -

او لعلهم بضعة الوف فقط — فهم اصحـــاب العقول التي صنعت عالمنا : العلماء ، ورجال الخطط الحربية والصناعة ، اهل الفنون والريادة والاختراع ، المنظمون والمؤلفون والموسيقيون والفلاسفة والاطباء والمعلمون والمشترعون والساسة ، بضعة آلاف في كل طبقة ، هؤلاء هم اصحاب العقول التي منحت سائر البشر نعماً لا تقدّر ، او انزلوا بهم اذى لا يحدّ . فاليهم يرتد جانب كبير من تاريخ البشر .

انظر في العالم منفصلا عن البشر ، تره اما جامداً لا يحول ، واما انه يتحوّل تحوّلاً بطيئاً وكأنه يتبع ايقاعاً آلياً . فالسيارات تدور حول الشمس ، وهي تبطئ شيئاً فشيئاً في دورانها . اما المد والجزر فيتبعان القمر في زيادته ونقصانه . واما « الطقس » فيبري الصخور ، والبحر يأكل الشواطئ ، والثلج القطبي يزحف ثم يرتدّ . اما الهواء والماء فيزخران بالاحياء — ولكنهما قلما يتغيران ، واذا فعلا ففي ازمنة متطاولة . تنمو الاعشاب السرخسية وتسبح الاسماك وتتذبذب الاحياء المجهرية في عالمنا هذا ، كما كانت تفعل منذ زمن بعيد قبل ان انتصب الانسان ومشى على الارض . امـــا النمال الدؤوبة فتمضي على نهجها الرتيب ، من حفظ النوع وتخليده كما كانت تفعل يوم كانت جبابرة الدينوسور تسيطر على الارض . ولكن الانسان ، في تاريخه المقتضب ، قد غيّر عالمه ونفسه ايضاً ، وصفته الخـــاصة هي احداث

التغيير المقصود بوساطة الفكر ، فهو ازخر ما يكون حياة واصدق ، عندما يفكر .

وليس هناك سوى ثلاثة مذاهب علمانية لتفسير التاريخ : اما الاول فهو ان التاريخ تصنعه جماعات من الناس متعاونة متكاتفة ، واما الثاني فهو ان هناك « قوى » عمياء غير شخصية تحدث التطوُّر التاريخي ، واما الثالث فهو ان الافراد الاقوياء هم الذين يعينون وجهته ويسيرون في الطليعة . وليس ثمة ريب في ان كل مذهب من هذه المذاهب هو حقّ الى حدّ ما ، وليس بينها مذهب واحد هو الحقّ كله وما عداه هباء. فالتحول الاقليمي والامراض الوبائية تحمل الناس على الهجرة من مكان الى آخر ، او تهلكهم . ونماذج السلوك الاجتماعي والاقتصادي والديني والفنيّ ، تستكمل على اجيال متعاقبة ، والهجرات الكبيرة تقع وليس لها قائد بعينه . ومع ذلك فان طائفة من اعظم وجوه التغيّر وأشدها حيوية قد تمت في عصور التاريخ القريبة منا على ايدي افراد اقوياء . ولم يكونوا جميعهم من اهل الفكر ، بل اندفع بعضهم بانفعالات الحب او الحقد او القسوة او الكبر ، ولكنّ عمل المفكر كان ادوم وابقى اثراً .

ولما كان كل هذا لغزاً غامضاً ، فليس في وسعنا ان نقرر كيف ينجب المفكرون العظام . ولن تجد سوى قواعد قليلة تنطبق على إنجابهم . فهم لا ينبتون كما ينبت الشجر ، ولا

يربّون كما يربى الحيوان المختار ، والناس لا يولدون ذوي فكر او غير ذوي فكر ، بل يصيرون كذلك ، ولعل أضمن طريقة لتنشئة المرء تنشئة تجعله ادنى الى بلادة العقل ، هي ان يكون في جماعة كبيرة جامدة من الناس ، تعمل العمل اليدوي وتعيش على مستوى يكفل حفظ الرمق وحسب ، وعلى غرارها تقريباً ان يولد المرء في اسرة كريمة لها ثروة موروثة ، ومنزلة اجتماعية مضمونة ، وان يبعث به الى مدرسة هادئة دقيقة النظام . فالفلاح الصغير والنبيل الصغير ، كلاهما سجين محبس عقلي ، هو الأخدود في الحقل او المجتمع .

تدريب المفكر

لا ، ليس في وسعنا ان نعرف كيف تنشأ العقول العظيمة ، ويشقّ علينا ان نعرف كيف نستطيع ان نتبينها ونشجعها عندما تنشأ . ولكننا نعرف وسيلتين تغذيانها في خلال نموّها.

اما الاولى فهي ان نضع اصحابها دائماً امام ما يتحداهم ويحفزهم . لنعرض عليهم المشكلات ، ولنعرّضهم للمصاعب ، إن بهم لحاجة الى التفكير ، لنواجههم باشياء يفكرون فيها ، ولنحرص على نقد تفكيرهم في كل مرحلة من مراحله ، ففيهم نزوع الى الاختراع والابتكار ، لنقترح عليهم تجارب يجربونها ، ولنطلب منهم ان يكشفوا عن الخفيّ والمستور .

واما الثانية فهي ان تعقد صلة الوصل بينهم وبين غيرهم من اصحاب العقول الممتازة. ليس يكفي الفتى الذكي والفتاة الذكية، ولا يكاد يكفيهما ان يجتمعا بأقرانهما ومعلميهما ووالديهما. بل ينبغي له ولها ان يجتمعا برجال ونساء من ذوي الامتياز الحق الذي لا ينكره منكر، اي ينبغي لهما ان يتصلا بالخالدين. وقد مات افلاطون، ذلك الوغد الألمعي المتشائم، منذ ٢٣٠٠ سنة ولكنه لا يزال يتحدّث ويفكر في كتبه ويحمل الغير على التفكير. ولن تجد طريقة تحفز الشاب الى التفكير في اية مسألة من مسائل الفلسفة — سلوك الانسان، العمل السياسي، التحليل المنطقي، ما وراء الطبيعة، اصول الجمال — افضل من مطالعة افلاطون ومحاولة الردّ على براهينه، واستكشاف سفسطائيته، ومقاومة الاغراء في اساليب اقناعه، حتى يصير الشابّ تلميذاً له وناقداً في آن. ولن تجد احداً يحسن الاخذ في كتابة الموسيقى الا اذا درس مؤلف باخ، «الارغن الذي احسن ضبطه»، وسمفونيات بيتهوفن. والمؤلف الموسيقي الشاب الذي يدرس هذه المؤلفات الموسيقية، لن يؤلف موسيقى كموسيقى بيتهوفن او باخ، اذا كان على شيء من الاجادة والاصالة، بل يؤلف موسيقى ادنى الى الموسيقى التي يتوق في قرارة نفسه الى تأليفها. وقد يصبح احد الرجال دبلوماسيا موفقاً اذا اتبع القواعد المدوّنة، فيحل كل مشكلة تعرض له، ولكنه اذا شاء ان يصير سياسيًّا

بناء فعليه ان يقرأ مكياڤلي وان يتدبر حياة بسمارك ولنكن ودزرائيلي ، فخير طريق مفض الى العظمة هو ان تعاشر العظماء.

فالتحدي والتجربة من ناحية ، والمشاركة مع العقول الخالدة من ناحية اخرى ، هما الطريقان اللذان يضمنان تنشئة رجال ونساء ذوي ذكاء وفهم . وهاتان الفرصتان اللتان تمهدان للعظمة ، متاحتان او ينبغي ان تكونا متاحتين في المدارس والكليات والجامعات . وقد يخيل اليك ان تسأل : هل تنشأ المدارس لتنشئ العباقرة ؟ والجواب كلا ، ولكنها لا تقوم لتنشئ الوسط من الناس وحسب ، او لاهمال الموهوب او تخديره . فهي تقوم لتحسن تنشئة الفريقين جميعاً ، ولعل التبعة الواقعة على كاهل التربية في ان تعطي العقول الممتازة حقها من العناية هي من اعظم تبعاتها ، على ان يذكر المربون أن العقول الممتازة قد تنبثق في اي مكان او زمان وفي اي انسان — حتى الهيكل الغليظ المشوه قد يضمّ بين برديه عقلًا ألمعيًّا . ومن اغرب ما قد يقع للمعلم في مدرسة ريفية صغيرة ، يدرّس فيها سنة بعد سنة ، موادَّ منهج لا يتغير ، لأبناء اسر لا تتبدل ، هو ان يكشف ذات يوم بين تلاميذه فتى مهندساً موهوباً ، او كاتباً مسرحياً مطبوعاً . شيء يحيّر ويربك ، وهو صعب ايضاً . صعب على المعلم ان يعرف كيف يشجع دون ان يتعاظم ، ودون ان يساوره شيء يسير من الحسد . ومع ذلك فان تاريخ المعرفة حافل بقصص وقعت

لمعلمين تبينوا مواهب بارزة في تلميذ ما ، واتاحوا له كل ما يحتاج اليه من عون في طريقه الى القمّة — قَصَصٌ يحرك النفس ويشجع على العمل . وفي هذا الباب تدخل قصة الصبي الفلاح الاسباني الذي كان يرسم بالفحم على لوح من الخشب، يوم رآه معلمه ، واخذ يدربه ، فكان له يدٌ في خلق (غويا) الفنان . ومن قبيلها قصة التلميذ اللندني الأعجف المرهف الاحساس الذي اتاح له ابن ناظر المدرسة ذات يوم فرصة المطالعة الحرة في خزانة ابيه ، فوجد بين الكتب على رفوفها ترجمة تشابمان لهوميروس فأوحت اليه قصيدته المشهورة التي عنوانها « بعد وقوع النظر على ترجمة تشابمان لهوميروس » ، هذا هو كيتس . ومن وراء كل رجل عظيم يقوم والد طيب او معلم طيب .

ان التربية في الولايات المتحدة وغيرها من بلاد الغرب مأثرة تبعث على النشوة — هذه المدارس الصحية المشرقة ، وهذه الكليات العديدة ، وهؤلاء الاحداث الذين يستمتعون بما قسم لهم فيها دون ان يجهدوا انفسهم في الدراسة . ولكنّ فيها ضعفاً في موطن او اكثر ، منها ان التربية قد غدت ميسورة المنال اكثر مما ينبغي ان تكون ، وكأنها تعد شيئاً مُسلَّماً به كالماء العذب ، ولن تجد احداً يتوقع ان يجد فيها حافزاً قوياً او غذاء دسماً ، ولكنها كالماء العذب ، يُطلب لانه لا بد منه ، لحفظ الانسجة ريانة والاشياء نظيفة . واما الثاني

فهو انها قلما تصحب الطالب الى الايام التالية من حياته بعد ان يكتمل نموه. فالاميركي الوسط يؤثر ان يسوق سيارة في جادة مزدحمة، على ان يقرأ كتاباً او على ان يفكر. والفرنسي الوسط يفضل ان يحتسي زجاجة ثانية من النبيذ على مشاهـــدة مسرحية من مسرحيات راسين. والبريطاني الوسط يختار ان يملأ قسيمة مباراة لكرة القدم على ان يستمع الى موسيقى «انيجما» (اللغز) من تأليف «الجار». ولست ادري سر هذا. فلا بد ان يكون في التربية خطأ في مكان ما منها. وعسى ان يكون سر هذا، اننا نتعلق بمحبة الوسط من الناس، وان التربية انما اتيحت وسائلها لتجعل الناس على مستوى واحد، وان السعادة هي في المشاركة في جماعة متجانسة، مزدحمة تدندن دندنة حلوة واحدة، ولا تميز بين افرادها، كالنحل في القفير.

ولا ريب في ان المدارس هي للوسط من الناس، ولكنها وجدت ايضاً لكي تخدم الممتاز. والذين انشأوا اميركا ليسوا الاوساط من الرجال والنساء وحسب، بل اسهمت معهم ايضاً فئة من ذوي الاطوار الغريبة والابطال والجبابرة. فهؤلاء يمجدهم ستيفن سبندر حيث يقول:

إنني لا أنفكّ أفكر في اولئك الذين كانوا عظماء حقاً،

الذين تذكروا منذ كانوا في ارحام امهاتهم تاريخ النفس

في اروقة الضياء ، حيث الساعات ، شموس

لا تنتهي ولا تكف عن النشيد . اولئك الذين كان مطمحهم الاجمل ،

ان تتمكن شفاههم ، وقد مستها النار ،

من ان تحدّث عن الروح مجلببةً بالنغم من الرأس الى القدم

. . .

ولدوا من الشمس فمضوا مسافة قصيرة الى الشمس ،

وتركوا الهواء الحيّ مطبوعاً بطابع نبلهم .

ان حياة كل معلم هي في بعضها وقف على ان تستكشف وتشجع هذه العقول القوية القليلة التي تطبع المستقبل بطابعها ، وسر التربية هو ألاّ ينسى المعلم ابداً ان العظمة خليقة ان تكون كامنة في تلاميذه .

ودّين في اعناقنا ان نوقّر العقول العظيمة في الماضي والحاضر والمستقبل . ومن بواعث الالهام والغبطة ان نطالع اسماءهم ، فأحدها يلقي من ضيائه على الآخر ، ويتلقى ضياء من غيره ، فكأنّ المرء يرفع بصره الى النجوم ، ثم ينقّله

من الدب الاكبر الى الجبار الى الدبران الى الشعرى الى العيوق — من مجد الى مجد .

واذا فكرنا في دانتي صاحب امجد العقول في القرون الوسطى ، انطلق فكرنا من فوره الى استاذه وصاحبه فرجيل ، فهو الذي هدى خطاه في الجحيم والمطهر حتى ادرك رؤيا حبيبته ، ثم ننتقل من قصيدة دانتي الى صنوهـــا النثري ، كتاب « القمّة » لتوما الاكويني ، ثم نرتد من توما الاكويني الى استاذه ارسطوطاليس . واذا ما قرأنا لفرنسيس بيكون ، فسرعان ما نتذكر كاتباً سبقه وكان احنى منه والطف ، هو مونتاني ، ثم اذا تذكرنا ان بيكون كان مفكراً علمياً ، انصرف ذهننا الى ديكارت ، ومنه الى عقل يمتّ اليه بصلة هو عقـــل ليبنتز ، وكذلك ننتقل من عظمة الى عظمة . فديكارت ونيوتن حاولا ان يفسرا الكون . واذا ما ذكرنا نيوتن لم يكن بدّ من الارتداد الى كپلر وتيخو براهي ، اللذين تقدماه ، والى لاپلاس الذي جاء بعده . واحياناً ترى العقول العظيمة يذكّر بعضها ببعضها الآخر ، لان اصحابها على رغم كونهم غرباء بعضهم عن بعض ، ونطاق احدهم ووسيلته يختلفان عن نطاق الآخر ووسيلته ، فانهم كانوا يرون نواحي متشابهة من الكون . فمن العسير ان تعزف بعض الحان باخ دون ان تذكر وجوه اولئك الشيوخ الحكماء ذوي القسمات المجعدة والعيون الغائرة ، يطلون علينا من ظلال الصور الاخيرة

التي رسمها رمبرانت ، وعسير ايضاً ان تنظر الى الصور الصوفية التي صنعها « دورر » بالخطوط الدقيقة ، دون ان تفكر في فاوست .

فهؤلاء الرجال لم يكونوا — كما يظن بعض المؤرخين من غير ذوي الرويّة — صنائع زمانهم ومكانهم . بل كثيراً ما كانوا شواذّ يهملون عصرهم او يؤلفون طليعة عصر جديد . وقد كانوا على الاغلب عصاميين ، فلما صاروا لعصرهم ألسنة تفصح ومعلمين يعلمون ، كان لهم يدٌ في تكوينه ثم سيطروا عليه. وحسب المرء ان يطالع سيرة مفكر من هؤلاء المفكرين ليتجدد ايمانه بالانسانية ، وشعوره بما عليه من تبعة حيال العالم . ان التنقل الحرّ بين العقول الشامخة في احد العصور العظيمة — كالقرن السابع عشر او العصر الذي انجب شيشرون ولقريطيوس وفرجيل وهوراس وليفيوس ، او القرن التاسع عشر — ليبعث على عجب لا ينقضي لما في عقل الانسان من اغوارٍ لا تسبر ، وتنويع لا يحدّ ، واذا قول الشاعر التراجيدي الاغريقي على الشفاه :

ما اكثر العجائب ! ولكنك لن تجد

بينها عجيبة اعجب من الانسان

الفصل الخامس

مستقبل المعرفة

ان قوى المعرفة هي قوى فذّة ولا يعدلها او يقاس بها شيء ، فما هو مستقبل المعرفة ، والى أية غاية هي خليقة بان تسير بالانسان ؟

ليس للمعرفة مصير واحد ، بل ثمة ثلاث غايات قد تنتهي الى احداها .

الاتساع

اما المصير الاول فهو الذي يرجوه الكثيرون منا ، لا جميع الناس . فقد يتسع نطاق المعرفة وتنتشر رقعتها وتزداد قدرة العقل ويعلو شأن العمل الذي يعمله . واكبر ما يبشر بأننا صائرون الى هذا المستقبل هو ازدياد المعرفة بالقراءة والكتابة في العالم . وفي وسع مؤرخ ان يضع كتاباً جيداً سليم الاركان

في تاريخ الحضارة ويجعل محوره تقدم القراءة والكتابة ونشر الكتب وتوزيعها. ففي الاجيال الاربعة او الخمسة الاخيرة خاصة، بلغ التقدم في معرفة الكتابة والقراءة مبلغاً من السرعة وسعة النطاق، حتى ليعجز اكثرنا عن تقديره، فهو انتصار من انتصارات الروح. وقد كان والدي، رجلاً يحب الكتب، ولكنه يذكر انه كان يعرف نسّاجين اسكتلنديين، قلما اتيح لهم ان يتعلموا في مدرسة، ولكنهم علّموا انفسهم القراءة بتهجئة الالفاظ في كتاب يضعونه الى جنبهم على النول فيتعلمون وهم ينسجون. وقد عَلّمتُ الادبَ الاغريقي القديم لطلاب كان اجدادهم لا يتكلمون لغة معروفة، بل كان حديثهم بلهجة اوروبية مجهولة لا يعرفون القراءة بها، ولا كان ثمة كتب أُلفت وطبعت فيها. وقد تمّ مثل هذا التحول في ارجاء كثيرة في الغرب خلال القرن الماضي، قرن المدارس العامة، والمكاتب العامة. ونحن نشهد اليوم اتساع رقعته وانتشاره في سائر ارجاء العالم. ومع ذلك فلا تزال الكثرة من البشر اميّة، ولكنها تدرك اليوم وتعترف بما للكتب من مقام خطير.

وثمة ثلاث نواح من مجهود البشر يحقّ لنا ان نتوقع فيها، خلال القرن المقبل، تقدماً عظيماً ينفع البشرية نفعاً اكيداً، وهذه النواحي هي القراءة والكتابة، واستعمال الأرض، والصحة العامة. والناحية التي يمكن ان يتم فيها اعظم التقدم هي حتماً ناحية القراءة والكتابة.

والرجاء معقود بأن يصحب ذلك ازدياد مطرد في دور الكتب في جميع ارجاء الارض ، فلن تجد دار كتب ، شيئاً لا نفع فيه ، واصغر مجموعة من الكتب قد تحتوي على ذخائر لا مثيل لها ، او قد تلهم احد العباقرة . وكل دار كتب هي إثبات لثقة الانسان التي لا تحول ، بأن الذكاء والفهم هما الدرع الواقية من التنكر للعقل ، ومن بطش القوة وعوادي الزمن والموت . وحياة كل بلدة او كنيسة او مدرسة لا تحتوي على مجموعة وافية من الكتب ، هي نصف حياة . والحق ان دور الكتب اليوم قد صارت الزم مما كان كارنيجي او غيره من المحسنين يتصورون ، لانه وقد طغى سيل النداءات المبلبلة الموجهة الى اهتمامنا العابر ، كمقالات المجلّات التي تكتب كتابة سريعة ، والصحف التي تحوي نُتَفاً مبعثرة مهلهلة ، وسيول الكلام التي تنصبُّ من اجهزة الاذاعة ولا تنقطع ، صار لا مفر من ان تكون دار الكتب مكانا للراحة والسكينة والانصراف عن شؤون الساعة ، الى التفكير .

وليس ثمّة ريب في ان العلم المطبق واساليب الفنون الصناعية التي زادت كفايتنا ووسائل راحتنا في القرن الماضي ، ستمضي في طريقها تعزز ذكاءنا بانتاج وسائل ميكانيكية جديدة . وقد يبدو من المفارقات ان يكون عمل المفكرين دائماً عملاً شاقاً . ولكنه كان اشقّ كثيراً في الفترة الواقعة

بين سنة ١٥٥٤ و ١٧٥٤ ، ان يصير المرء عالماً ، مما هي الحال في سنة ١٩٥٤ ، لانه كان حتماً على العالِم يومئذٍ ان ينفق جانباً كبيراً من وقته في التمهيد لعمله الاصيل ، واعداد تفصيلاته . فقد كان لزاماً عليه ان يجمع كتب المراجع التي يحتاج اليها وان ينسخ كل شيء بيده ، وان يصنع الفهارس وان يبحث عن الحقائق المتفرقة ، غير المبوبة ، وان يبني بيديه ادوات البحث ، وان يعتمد اكثر مما يجوز على الذاكرة . حتى الضوء الذي كان اسلافنا يستعينون به في القراءة كان ضعيفاً . ولكننا نجد اليوم ان كل فرع من فروع المعرفة ، وجميع نواحي البحث والاستطلاع بوجه عام ، صار لها دور كتب خاصة بالمراجع ، وهذه المراجع هي كتب ، طبعها واضح ، واستعمالها ميسّر ، وفهارسها وافية . وليس ثمة ريب في ان الآلة الكاتبة ، والقلم الدقيق ، هما من النعم التي اتيحت لطلاب العلم ، والتقدم مطّرِدٌ في ابتكار وسائل جديدة تعين على العلم والبحث . ومنذ عشر سنوات كتب فانيفار بوش مقالاً ممتازاً وصف فيه الطالب في زمن مقبل ، وهو مكبٌّ على دراسته وامامه نضَدٌ ، — كغيره من الطلاب فيما سبق — ولكنه نضَدٌ يحتوي على مكتبة كاملة . ففي سطحه ألواح من مادة شفيفة يضيئها جهاز مركب تحتها ، فيستعملها كأنها ستار في دار عرض للصور المتحركة ، ويعرض عليها صفحة مطبوعة (او مخطوطة) اثر صفحة ، وكل منها مشرقة واضحة تفوق الصفحة المطبوعة في كتاب ، اشراقاً

ووضوحاً، وفي ادراج النضد تختزن على لفائف من الفلم الدقيق، ألوف من الكتب والسجلات والوثائق مصورة تصويراً مصغراً على الفلم، ولها فهارس تدل عليها، فما على الطالب الا ان يضغط زرًّا، فاذا الكتاب الذي يريده او الوثيقة التي يطلبها قد ظهرت على اللوح امام عينيه. ويحتوي النضد ايضاً على وسائل تمكنه اذا ضغط زرًّا، من ان يسجل على الفلم الدقيق ما يريد تسجيله. وهذه الوسائل لا تزال بعيدة عن منال اكثر العلماء، لانهم فقراء، ولكنها ادنى الينا، مما كان الكتاب المطبوع الى المخطوطة في القرون الوسطى. ثم هناك الخبراء في العلم الكهيربي، فقد جعلوا يصنعون ادوات اعجب تساعد على البحث، كالآلة الحاسبة، التي يبلغ حجمها حجم غرفة، والتي تستطيع ان تغني عن مئات من الرياضيين، او الآلة التي تتذكر ولا يزيد حجمها عن حجم جهاز راديو متوسط، ففي قدرتها ان تتصفح كلَّ كلمة في مكتبة مؤلفة من مئة مجلد، وان تختزنها وتعيدها متى طلب ذلك منها. واعجب هذه الآلات آلة تستطيع ان تختزن ملايين لا تحصى من الحقائق خلال سبعين سنة، وهي تسيطر على آلتين مصوِّرتين، وجهازين يسجلان الصوت، وعشر ادوات عجيبة في خفة حركتها وحسن ملاءمتها، وهذه الآلة هي المخ البشري. ولا تنسينّ ان نشوءه قد استغرق مئات الالوف من السنين، فالادوات الجديدة التي تساعده على العمل تجعل عمله أيسر.

ولنا ايضاً ان نتطلع الى تنظيم الدراسات العلمية تنظيماً عالميّ النطاق. وتاريخ علم الفلك وحده، يبين مدى التقدم العظيم الذي يمكن تحقيقه متى اتفق رجال العلم في جميع البلدان على ان يتبادلوا المعرفة، وان يعالجوا مشكلاتهم بروح التعاون الصادق. ولكن معظم الجمعيات القومية والاقليمية — في معظم ميادين المعرفة — التي انشئت حتى تتيح لأعضائها تبادل المعرفة والمشاركة في المكتشفات وتشجيع بعضهم بعضاً، لا تعود الى اكثر من ثلاثة اجيال او اربعة. ومع ذلك فما حققته حرّي بالاعجاب. ان العمل الذي يقوم بـه مجمع تقدم العلوم الاميركي، والجمعية الطبية البريطانية، وجمعية غيّوم بوديه، وجميعات كثيرة عداها، قد سبقت فيما حققته كل رجاء عقده عليها مؤسسوها. وليس ثمة ريب في ان العوامل التي تثبط من همة العالم كثيرة. فالمكافأة التي ينالها قليلة، وكثير من عمله يتم في عزلة عن غيره، وبعد ان يمنى العالم بالخيبة مرة بعد مرة يصير في عزلته ميّالاً الى التشاؤم. حتى التعليم نفسه ليس فيه من القوة الحافزة ما يكفي في بعض الاحيان، لانه لا بدّ فيه، من تعليم التلاميذ بسائط الموضوع، على حين ترى ان البحث العلمي الذي بلغ درجة من الرفعة، هو فوق مداركهم. واما بقية الناس فيلوح انها تعجب بالمشعوذين والدجالين وتجزيهم احسن جزاء، فلا عجب ان ترى العالم يبطئ السير، او يفكر في ان ينصرف عن بحثه. ولكنه اذا ما حضر الاجتماعات التي يعقدها جماعة من العلماء، يشاركونه

العناية فيما يستأثر بعنايته ، فإنه يستردّ ثقته بالنفس وبأن ما يصنعه له شأنه ، ويستذكر اسماء العظماء في عهود سابقة ، ويجتمع بالعلماء الشبان الذين يعقد عليهم الرجاء في ترقية علمهم في المستقبل . وكل زيارة لمؤتمر دولي يعقده العلماء هي اشد حفزاً للمواهب ، فهي تسمو على المنافسة الخاصة والمسابقة المحلية . نعم انها تحرّك احياناً العاطفة الوطنية ، ولكن الارشاد الحكيم واطراد حكم العادة يتغلبان عليه . اما المفكر الذي لم يعنَ من قبل بتحديد مبادئه لان تعليمه كان منحصراً داخل حدوده الضيقة ، واما الجماعة التي كانت تدفع الى التعاون بقوة الغريزة ، فتراهم يهتمون جميعاً في مؤتمر دولي بتقويم اهدافهم واساليبهم ، حتى يتاح لجميع الاعضاء (ولهم انفسهم) ان يستوضحوها . ان الاطلاع على تجارب نشأت من بواعث محلية او وطنية ، وفتور بعضهم حيال آراء معينة ، والشك في فروض تطرح للبحث في المناقشة ، ثم مراجعة جميع مداخل البحث المقترحة لموضوع ما ، كل ذلك يعين العالِم على التغلب على شعور العزلة والانفراد والضعف ، ويقنعه بأنه علاوة على كونه العالِمَ فلاناً ، في هذه البلدة او تلك ، هو ايضاً أداة لنشاط إنساني وعلوي — عقل البشر .

وقد كانت المؤتمرات العلمية الدولية ، حتى عهد قريب ، قليلة ومتفرقة ، وكانت الهيئات التي تدعو اليها وتشرف عليها ، غير راسية البنيان ، وفي السنوات الباهرة الحافلة بالرجاء

والسعادة ، في مطلع القرن العشرين بدأت تتأسس جمعيات عالمية للتعاون الفكري ، ولكن الحرب العالمية الاولى مزّقت اوصالها . اما الحرب العالمية الثانية فقد شجّعت على المضيّ في انشائها مرة اخرى . فمنذ سنة ١٩٤٥ عقدت مؤتمرات دولية كثيرة كبيرة الفائدة ، وعددها يزداد ازدياداً مطرداً كل سنة ، كمثل مواسم الموسيقى ، والافلام ، ومؤتمرات المؤرخين ، وخبراء الطعام ، وعلماء الاوراق المخطوطة ، والاحراج . ومنظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اونسكو) تتوخى في طليعة الاغراض التي تتوخاها ، ان تحفز الهمة الى عقد هذه المؤتمرات وتنظيمها ، فالاونسكو هي خلية جديدة في العقل العالمي .

وقد كان نشر الأبحاث حتى الآن مقصوراً على المجلات الوطنية مثل « كليو » و « تقدم الهندسة الكيميائية » و « المجلة الاسبانية لتحدّر اللغات » و « مجلة الكيميا التحليلية » و « اللانست » وغيرها . ومن المشاق التي كان كل عالم يعانيها مشقة الاطلاع على المقالات يكتبها زملاء له ، ثم قراءتها مطبوعة في لغات شتى . وانك لتجد اليوم بضع مجلات تنشر فيها مختصرات المعرفة ، على نطاق دولي ، وبضع مجلات عالمية كمثل مجلة « اراسموس » التي تصدر في سويسرا ويحررها مجلس تحرير مؤلف من علماء قارتين . ولكن عددها غير كاف . وهذا مجال ممتاز لعمل احدى المؤسسات الغنية ، ففي وسعها ان تنشىء سلسلة من المجلات الربعية تختص بأهم ميادين المعرفة ، وتتلقى المقالات للنشر فيها من جميع انحاء العالم ، وتنشر باللغات

الثلاث او الاربع التي تعد اللغات الثقافية الرئيسية . او لعلها تهب اونسكو مبلغاً كافياً من المال لتقوم هي على إصدار هذه المجلات عسى ان تمكنها الاشتراكات التي تتلقاها من دور الكتب في انحاء العالم من ان تنهض بنفقاتها فيما بعد.

اما الطلاب الشبان فقد انشئت لهم جمعيات تتيح لهم ان يمضوا فترة من مرحلة دراستهم الجامعية ، بين سنة ونصف سنة ، في بلاد غير بلادهم . وقد شرعت أونسكو في الاشراف على مثل هذا العمل . ويذهب بعض المثاليين الى ان تبادل الطلاب على هذا الوجه من شأنه ان يضعف النزوع الى الحرب في المستقبل . وقد يشكّ في ذلك كلُّ من يدرك القوة العظيمة التي تمارسها الحكومات الوطنية والبواعث التي لا يقرها العقل ، وكيف تفضي الى معظم الحروب . ولكن هذا التبادل يعين على الاقل ، اولئك الذين يبقون احياء — بعد حرب ما — على ان يلمّوا أطراف العالم المتهدم ويشرعوا في بناء الوحدة العالمية .

هذا هو مستقبل المعرفة الذي يعلق به رجاء كثيرين منا : ان يتسع نطاقها في جميع ارجاء الارض . غير انّ هناك طريقين آخرين قد تسلكهما المعرفة في مستقبلها .

الانتحار

احدهما هو ان يقدم العقل البشري على الانتحار . ان الكثرة الغالبة من الناس تجلّ المعرفة ، ولكن ذلك لا يعني

ضرورة انهم يحبونها . وقد كان سويفت المتشائم يقول : ان قدرة الناس على التفكير هي كمثل قدرتهم على الطيران . ولنفرض ان مستوى الحيـــاة مضى يرتفع في جميع ارجاء الارض ، كما تمّ له في القرن الماضي ، وان عدد السكان ازداد ازدياداً مطرداً ، وان ساعات العمل قد قلّت وساعات الراحة والفراغ قد زادت ، وان ما يقلق الناس قد خفّ ، وان فرص المتعة قد كثرت كثرة عظيمة — ترى ماذا يؤثر الناس يومئذ ؟ أيفضلون المعرفة على المسكرات ؟ أيأخذون الفن والموسيقى والكتب ، ويدعون الميسر وسباقات الخيل ؟

يشقّ على المرء أن يقطع برأي ؛ فالناس ، بين رجـال ونساء في جميع اقطار الارض ، لا يكادون يحرزون قليلاً من مـال وفراغ ، وشيئاً يرفعهم فوق ضغط الحاجة الملحة الى الطعام خلال اسبوعهم المقبل ، ومخاوف السنة التالية ، حتى تراهم قد صاروا الى سخف وقرف فيما يؤثرونه من ألوان المتعة . وسواء أحسبت المال شيئاً يمثل عملاً اضافياً ، (تجنيه في بضع ساعات) ، او مادة (كالنفط او غيره من المعادن المستخرجة من جوف الارض ، او نباتات وحيوانات تنمو على سطحها او قدرة مولّدة من ألوان الطاقة المختلفة) فانه مما يروّع النفس ان ترى ألوف الملايين من ساعات العمل ومقادير لا تحصى من المواد تبدّد وتبذّر كل يوم في جميع العالم ، على المتعة السخيفة . وليس في لون واحد منها ما يزيد على متعة يوم وحسب ، ومعظمها لا يؤتي حتى هذا ، وكلها قائمة على

فكرة « المتعة » وهي تعني حقيقة إشباع شهوة عارضة . فكأننا نمتّ الى القردة بصلة لأن كثيرين منا لا يدركون ان المتعة هي غير السعادة .

فمن الممكن ان ينتهي الفكر البشري الى هلاكه تحت سيل اتيّ من السخف البشري . فالامم والحضارات التي تكشف انه أيسر عليها جداً ان تنصرف الى المتعة العابرة دون ان تلقي بالا الى شيء باق في عالم العقول ، سرعان ما تجد ان عضلاتها العقلية قد ضعفت او استرخت ، وانها لا تستطيع ان تفكر مطلقاً في بعض الموضوعات الصعبة ، وانها تؤثر ان تُحِلّ بعض الانتفاضات العاطفية المتفرقة محلّ النشاط الفكري المتصل ، واذا هي تلفي نفسها في آخر الامر وقد استسلمت للهمجية استسلاماً ، ابهج في حسّها ، ولكنه اكمل من استسلامها لغزوة من الهمج . ذلك بأنها تصبح كالقبائل البدائية ، عاجزة عن القراءة والكتابة ، وعن تنظيم الخبرة في صورة منطقية ، وعن وضع الخطط للمستقبل او تذكر عِبر الماضي والاخذ بها .

وقد حدث شيء من هذا في حضارتنا . وعلى انك لن تجد احداً يعرف جميع الاسباب التي افضت الى انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعلى ان الاسباب كثيرة تتباين وتلتقي ، فمن البيّن ان احد تلك الاسباب كان انصراف الرجال والنساء الى المتعة وبالطبع إلى عزوفهم عن التفكير . وثمّة قصص تاريخية تصف قيام المسيحية ، من حيث هي حركة أساسها ثورة تهدر في نفوس الودعاء والمظلومين ، فاذا هم

يحتجّون احتجاجاً عنيفاً لا يقاوم على ما مارسه الجنود ذوو الحوذ ، والمعذبون الغلاظ من استبداد لا يطاق . وهذا كلام سخيف. فالمسيحيون الاول كانوا لا ينفكون يبدئون ويعيدون بأن الحياة من حولهم بلغت من حسن الحال مبلغاً فائقاً ، وان كل انسان كان يستمتع بالملذات ، وان كل شهوة كانت خليقة ان تُحقّق ، وان هناك شهوات جديدة تخلق كل يوم . فالثروة والملذة وانتفاء التفكير ، كانت قوام العالم الذي اراد المسيحيون ان يصلحوه ، او ان يهجروه يأساً منه. ولكن اتيح لهم فيما بعد ان يحملوه على اعتناق دينهم ، في الفترة التي كانت اركانه تتداعى وتنهار من حولهم ، ثم تمكنوا، كما نعلم ، من ان يصونوا كثيراً من خير ما فيه ، كالكتب وافكار الذين كانوا يفكرون ويؤلفون ، على حين كان غيرهم من حولهم ينفق الحياة والثروة على الغواني والخمر والوان السباق .

واذن فهذا خليق ان يقع في حضارتنا مرة اخرى . وثمة فريق من اهل الرأي يجد انه واقع الآن في بلاد كثيرة وان كان لا يشمل العالم الغربي كله ، ولا سطح الارض قاطبة . وهم يؤمنون بأن السعي وراء المال واللذة العابرة قد بدأ يفتك بقوى الروح الاخرى ، ويفسد المجتمع ، ويظن اليوت (الشاعر) أنه متى مضينا في طريق كل حيّ ، فان الرياح ستهبّ فوق أطلال بيوتنا ولسانها يقول :

هنا عاش قوم كرام لا يؤمنون بالله ،

وأثرهم الوحيد الباقي هو طريق معبّد « بالاسفلت » ،

وألف كرة من كرات « الجولف » .

اما روبنسون جفرز (الشاعر) فيعتقد ان الاموال والشهوات قد خنقت فينا خلائق البطولة ، وصفاء النفس ، والنبل ، وهي الخلائق التي أنشأت الجمهورية الاميركية وظلت سندها خلال سنين كثيرة . وثمّة غيرهم يرون مثل هذا في أوطانهم ، في بريطانيا واستراليا والبرازيل وفرنسا وغيرها .

بل هناك ما هو شرّ من هذا . إنك تذكر ولا ريب ما صنعه اليابانيون يوم غزوا الصين منذ عشرين سنة ، وكيف عُنوا عناية خاصة بتجارة الافيون ، فجعلوها شرعية ، وشجّعوها في جميع المناطق المحتلة ، ويسّروا على الناس التابعين لهم ، ان يصبحوا من مدمنيها . واتخذ الالمان « الفودكا » وسيلة كهذه الوسيلة في بولندة . اما ماشادو الحاكم بأمره في كوبا ، فكان خلال حكمه ، يعلن عن عرض افلام خليعة في مسارح هافانا ، اذا ما توقعت شرطته السرية ثورة او احتجاجاً او صيحة إرادة مستقلة ، وانما كان يفعل ذلك ليصرف عقول الناس عمّا يعنيها الى اشياء اخرى . فالمخدرات سلاح .

وإذن فمن الممكن ان تُفْسِد اكثرية شعب ما ، او ربما منطقة كاملة ، بأن تتيح لها المخدرات ، وتوفر لها توفيراً لا ينقطع ، ملذّات حقيرة غرضها إفساد الاخلاق وتبليد العقل . وقد يكون في الوسع ان تضعف القوة الادبية في ملايين من الناس بجعل الحياة ميسّرة الاسباب ، فينسوا ان يستعملوا

عقولهم . ان اباطرة الرومان قلما كانوا في حاجة الى شرطة سرية لانهم كانوا يوفرون لاهل روما وجبات طعام بالمجان وهدايا متعاقبة من المال . وقد اتيح لاهل روما في سنة واحدة ان يشهدوا خلال مئة وخمسين يوماً من ايام السنة حفلات عرض الالعاب الكبيرة من امثال الملاكمة (ولكن بالسيوف لا بالقفافيز) والمهرجانات الضخمة وسباقات المركبات تجرها الجياد . افيستطيع شعب حديث اليوم ان يقاوم اغراء عرض رائع ، وتوزيع اجهزة تلفزة بالمجان ، وتيسير الميسر بجعله منظماً وشرعياً ، وترخيص المشروبات الروحية ، وحضور حفلات لعب الكرة (على انواعها) والملاكمة والمصارعة ومباريات الدراجات النارية ، وعرض الجميلات في ملابس السباحة ، وسباق الجياد ، والافلام ، وكل ذلك بغير ثمن ، سبعة ايام في كل اسبوع ؟ وثمّة قول سياسي مخيف مؤداه ان الكثرة هي دائماً خادمة القلة . والكثرة غالباً ما تُقدَع عن طريق الاقطاعية او بعض النظم بين سياسية واجتماعية ، ولكن يتمكن احياناً بعض المستهترين من ان يسيطروا على الكثرة بتوفير المخدرات لها ، او بمنعها من مطالعة الكتب الجيدة ، او التفكير تفكيراً مبتكراً وبذلك ينتهي بهم المطاف الى تغيير الكثرة وجعلها مجموعة من المخبولين عن طريق المتعة التي توفر لهم . وهذا تماماً هو ما قصد اليه بوب (الشاعر) في قصيدته الساخرة اذ جعل ربة السخف تتثاءب تثاؤباً رائعاً وتقول :

الفن ، بعد ان يذهب الفن ويرين الليل .

يخجل الدين، وتسدل الستر على نيرانه القدسية،
وتخمد روح الاخلاق، غير دارية،
فلا شعلة عامة، ولا خاصة، تقدم على التأجج
وليس ثمة شرارة انسانية، ولا لمحة علوية،
واذا نحن امام ملك مخوف — هو الخواء. عاد الخواء!
فمات الضياء امام كلمتك العقيم.
إن يدك ايها الفوضوي العظيم، تترك الستار ينسدل،
واذا الظلام الكوني يدفن كل شيء تحته.

واذن فهناك مصير ثان للمعرفة في مستقبلها. فقد تخنق المعرفة، عن قصد، بيد فئة مسيطرة، او عن غير قصد بأيدينا نحن. وقد ينحطّ الفن فيصير زينة وتسلية، وقد تحلّ الحوافز المصطنعة محل المجهود الروحي، وقد يهجر الناس الفكر تاركينهُ لفئة قليلة من «الاخصائيين» و«الخبراء»، وقد يتاح لكل امرئ ان يعيش معيشة متعة، ويومئذ يصبح المجتمع وكأنه احد تلك المجتمعات الغريبة التي سبقت التاريخ المدوّن، والتي في وسعنا ان نتعرف صورتها من بقاياها. فقد كان الناس يعيشون على سواحل البحر، يلتقطون منه محاره ويأكلونه. وكان المحار كثيراً، ولم يكن للقوم أعداء سوى الشتاء وهيجان البحر. كانوا يعيشون سنة بعد سنة، وجيلاً بعد جيل، بطونهم ملأى، وعقولهم فارغة، وكل ما نعرفه عنهم اليوم ان هناك أكواماً ضخمة يبلغ ارتفاعها مئات من الاقدام، وهي مؤلفة مما نبذوه من اصداف المحار وحسب.

السيطرة على الفكر

اما المصير الثالث فهو اللجوء العمد الى القوة للسيطرة على الفكر البشري والحد من نشاطه. وهذا ايضاً قد وقع غير مرة في التاريخ. وهو واقع الآن. وغرض الذين يحاولون ان يسيطروا على الفكر هو واحد لا يتغير، وجميعهم يتوسلون بمبدإ واحد، فهم يجدون تفسيراً فرداً للعالم، او ينشئون نظاماً واحداً للفكر والعمل، من شأنه — في ظنهم — ان يشمل كل شيء، ثم يسعون الى فرضه على جميع الذين يفكرون.

والنقاد الذين يتناولون بالبحث فرض عقيدة من العقائد يذهبون في الاغلب الى ان كل انسان سويّ يكره ذلك الفرض، وان تيارات الفكر الرئيسية في التاريخ تخالفه، وان فئة قليلة من الاسياد الماكرين يحاولون ان يحققوه بالقوة. وهذا لون من التخيّل تمليه الرغبة، ولا يعد تحليلا مجرداً. ومهما تبلغ العقيدة التي يحاولون فرضها من التهافت، اذا نظرت اليها من الخارج، او من مشارف التاريخ، ففي الوسع جعلها مقبولة عند اوساط الناس، بوساطة عوامل كثيرة تغري الناس بها وتجذبهم اليها. واوضح هذه العوامل التي تجذب الناس اليها، هو شعور الغبطة بأن المرء عضو في جماعة يشترك افرادها في جميع معتقداتها، وانها جماعة تفوق الجماعات الاخرى، ويغلب ان تصف نفسها بأنها الجماعة «المختارة» او «الحزب الواحد» او «شعب الله» او حتى «ظلّ الله». ويعدل ذلك قدرةً على جذب الناس اليها بدعة الزعيم، او

الشخصية الملهمة ذات النفوذ الغلّاب ، التي تجمع بين الوداعة والقدرة ، والاقناع والسلطان ـ سمّها ما تشاء . ثم ان هذه النظم ترتكز على وحي سلسلة من الاقوال او الفروض لا يداخلها الشك . فالشيوعيون مثلاً يعتقدون ان التطور التاريخي في المستقبل صائر صيرورة لا تحول ، وفقاً لنظام اخترعه هيجل وعدّله ماركس . وجماعة المورمون تعتقد ان جوزيف سميث من بالميرا في ولاية نيويورك ، قد تراءى له مَلَك ، واظهره على مجموعة من الالواح الذهبية تفسر له ان سكان اميركا قبل كولمبوس قد تحدّروا من اليهود ، وان سميث قرأ الالواح مستعيناً بمنظار من ذهب ، فاستحالت الكتابة العبرية الى كتابة انكليزية. وهذه المعتقدات لا يمكن النظر فيها على انها محتملة ، وهل يمكن اثبات صحتها او فسادها ، فأصحابها يقبلونها ويسلّمون بها ، ولا تختلف في صحتها عندهم عن القول بأن حاصل الجمع بين ٢ و ٢ هو اربعة . والانسان الوسط يلقى راحة وطمأنية اذا ما ارسى تفكيره على اساس ثابت كهذا الاساس . واخيراً نجد ان من المغريات بهذه النظم كون اصحابها يزعمون لها كمالاً وشمولاً تامين ، فهي في نظرهم تحتوي على كل شيء . هنا الجواب على كل سؤال يتعلق بمشكلات الحياة ، مختصراً كأنه حبة من عقار ، وليس في غيرها جواب . والناس منذ ان صاروا بشراً ، لازمتهم الحيرة ، فمن مصادر سعادتهم ان يجدوا مذهباً يكفيهم مؤونة الحيرة ويجيب عن كل سؤال عن كيان البشر ، يلحُّ عليهم .

وانت تجد الكثرة من الناس ، في جميع ارجاء الارض ، يقبلون مذهباً او آخر من هذه المذاهب المنكفئة على ذاتها ،

فاذا ما بدا لناقد ان يشك فيها ، كرهوه ، وهم يفعلون ذلك ، لا لانهم يظنونه مهلهل التفكير ضعيف المنطق ، بل لانه يأبى ان يصدق الوحي الذي يصدقونه هم ، ويدنس طهر زعيمهم ، ويتهجم على الجماعة التي ينتمون اليها . ويغلب عليهم انهم يأبون ان يناقشوه ، فيدعون ذلك للمدربين منهم على الجدل. اما هم ، فيؤثرون ان يفعلوا ما فعلهُ الاغريق الاسيويون يوم بُلّغت رسالة القديس بولس الى افسس، فقد احتشدوا وظلوا يصيحون صيحة واحدة خلال ساعتين كاملتين ، « عظيمة هي ديانا يا اهل افسس » ، او تراهم يصنعون ما صنعه اليهود يوم كان بولس يبشر غير اليهود فيصيحون : « اقصوا هذا الرجل عن الارض» .

فمن الميسور ، إذن — وقد حدث ذلك غير مرة ، تعبيراً عن ارادة الكثرة — ان يُكْبَت كل نقد وشك في المذاهب الراسخة ، وان يعد النقاد هراطقة ، والهراطقة مجرمين قد حكم عليهم بالاعدام. وقد عاش اكثر الناس خلال جانب كبير من تاريخ الحضارة ، مستمسكين بهذه المذاهب ، موافقين على القضاء على الهراطقة . واذن فمن الممكن الذي لا يجوز إغفاله ، ان يفرغ الفكر البشري ، خلال القرن المقبل او نحوه ، في قالب مذهب او آخر من المذاهب الجديدة ، بكل ما يلازمها ، من السلطان المستمد من العلاء والتماسك الجماعي ، والرضا العـــاطفي . ولا يستبعد ان ينتهي عصرنا المتصف بالمغامرة ، والاضطراب ، والثورة ، الى عهد يغلب عليه الاتّباع الجامد . ونحن نشهد اليوم رجالاً من اهل الفكر ، في بلاد كثيرة ، يؤثرون الاتباع ، اما رهبة واما رغبة منهم في ان

يتجنبوا بديل الاتباع الوحيد – في نظرهم – وهو الفوضى . ومنذ عهد قريب صدر كتاب « العقل السجين » ، وضعه شاعر بولندي اخضع عقله لضغط الاتباع الذي يسود وطنه اليوم ، وهو يصف فيه وصفاً حياً ما ينزل بسكان ذلك السجن الجديد من استهتار وقنوط وانهيار كالجنون . ولكن لا تكاد تنقضي بضعة اجيال حتى يلين الناس رويداً رويداً ، بعد ان يتعلموا في مدارس وكليات اقيمت نظمها على الاتباع ، وبعد ان يقرأوا ويكتبوا كتباً لا تنحرف عن قواعده ، ولا يقرأون او يكتبون غيرها ، وبعد ان يتقوا التحذير من مخاطر الانحراف ، وبعد ان يألفوا راحة القبول والانسجام . فيومئذ خليق ان تجد اكثر الناس ذكاء قد مالوا الى الاستقرار ، زمنا ما على الاقل ، كالحيوانات التي تروّض في احد معامل الابحاث ، على التسليم بوجود حواجز غير مرئية هي جدران الزجاج واسلاك الكهرباء في اقفاصها ، فتتعلم ذلك وتألفه بعد ان كانت ترتدّ عنها مذعورة منها . وكذلك الناس ، يتعلمون ان يرتدوا عن حرية الفكر كأنها اجهاد لا يطاق ولا يتصور ، ويستمتعون بالعمل المألوف الاليف الذي يحل مشكلاتهم في « عالمهم الشجاع الجديد » – إنه عالم اصغر واحقر ولكنه اسلم عاقبة واحكم ترتيباً من الكون العظيم الذي لا يدرك كنهه .